مستويات بناء صورة المعنى في العقل البلاغي

مراجعــات منهجيــة

محمود توفيق محمد سعد(*)

شاع في طلاب العلم أنّ عبدَالقاهر الجرجانيَّ (ت:471هـ) هو إمام البلاغيين، وأَنّه الممَثِّلُ لهم، وأنّه هو الّذي رفعَ من قواعد ما سُمي بـ «نظرية النّظم». وشاع فيهم أنّ «نظريّة النّظم» على ما أبان عن مفهومها عبدالقاهر تكادُ تنحصرُ في نطاق بناءِ الجُملة منْ أنَّه عرَّف النّظمَ بأنّه «**توخِّي معاني النَّحو في ما بيْن معاني الكلمِ على حسبِ الأغراضِ والمعاني التي يكونُ لها الكلامُ**»[1].

فقوله: «**معاني النَّحو**»، وقوله: «**فيما بين معاني الكلم**» دالٌّ ظاهرُهُ على أنّ الأمرَ محصورٌ فيما يَكونُ بِالْكلم (المفردات) وهو الجملة. منْ أنَّ معاني النّحو تَقوم على العلاقات النّحوية المُمثلة في العلاقات الإسناديّة والتَّقييديّة والتَّقريريّة والتَّبيِيّنة .

أحقًا أنَّ عبدَالقاهر بلْ العقل البلاغيّ من قبلِه، ومن بعده لا يُعنى إلاَّ بما هو قائمٌ في بناءِ الجملة أوْ الجملتين أو مجموعة صُغرَى من الجُملِ؟ وأنَّ العقلَ البلاغي نظرًا وتطبيقًا وتأويلاً لا يعرفُ بلاغة

(*) باحث بجامعة أم القرى.

النّصّ. وأنَّ الأساليبَ التي تناولوا درسَها وتدريسها خلال قرون متلاحقة لا تعمل في بنية النّصّ؟

ذلك ما أرغبُ في مراجعته في العقلِ البلاغيّ مراجعة علمية، لعلّنا نصلُ فيه إلى الحقّ ، فإنْ ثبتَ ما أشيعَ، فلا يحقُّ لنا أن ندفعَ ما ثبت، ولا يحقّ لنا كذلك أن نسفّه أو نلوم، فما ذلك بأدبِ أهل العلم، بلْ علينا أنْ نُكمل بجهودنا نحنُ، ومن تراثنا نحنُ، وخصُوصيتنا الثّقافيّة المعرفيّة ما لم يُكمله سلفُنا، وإنْ تكن الأُخرى كشفنا بالحُجة والبرهان الصّحيحين الصّريحين الحقّ بغير إفراط ولا تفريط، فالحقّ لا يحتاجُ إلا إلى نفسِه، وهو أبعدُ ما يكونُ عن حاجته إلى الإسقاطِ والاحتيالِ في التّأويل، وما شاكل ذلك ممّا يتنافرُ مع خصُوصية العقلِ العلميّ.

***

توطئة في المرادِ بالعقلِ البلاغيّ:

أريدُ بالعقل البلاغيّ المُمارسةَ العلميّةَ التي تتّخذُ مناهجَ النّظر البلاغيّ، وأدواتِه، وضوابِطه، وغاياته وأهدافه في أثناءِ النَّظرِ في أيّ بيانٍ منْ أنواع البيانِ العليّ المعجز، أوْ البيانِ العالي البشريّ. فلعلم البلاغة منهاجُه وأدواتُه وضوابطه، وأهدافه ومجالاته التي يعملُ فيها، فكلُّ من اتّخَذَ من ذلك في أثناء نظره أيَّ ضرْب من ضُروبِ البيانِ، أو في أيّ مجالٍ منْ مَجالات النَّظرِ، فإنّ المرْءَ حينئذ يمارسُ العمل بعقلٍ بلاغيّ، ولذا تجدُ هذا العقلَ البلاغيّ حاضرًا في أسفارِ التّفسير وعلُوم القرآن، وفي شروحِ السّنة، وفي أسفار الفقه وأصُوله، وفي أسفار علم الكلام، وفي أسفار شرح الشعر والنّثر الفنيّ، ونقدهما، وفوقَ هذا في المدوّنةِ البلاغيّة. ومن ثَم لا يكونُ ما نتكلّمُ فيه أمرًا منحصرًا في أسفارِ البلاغيين، بل لعلّك تجد هذا العقلَ البلاغيّ أمكنَ في كتب التّفسير منْهُ

في كتبِ البلاغة، ولاسِيّما كتبُ المتأخِّرين من تلاميذ مدرسَة «مفتاح العلوم لأبي يعقُوب السكاكيّ(ت: 626هـ).

وإذا ما كانَ قدْ شاعَ في بعضِ أهل النظر أنّ العقلَ البلاغيّ غايتُه تشريعيّة تعليميّة عمليّة، يُعلِي من شأن القيمةِ على شأن النّظر التشخيصِيّ للظّواهر البيانيّة في الكلام، فإنّ ذلك، وإن سلّم بِه في بعضِ أسفارِ المدوّنة البلاغيّة التي أنشئَتْ لغايةٍ تعليميّةٍ وتنظيميّةٍ لنتاجِ العقلِ البلاغيّ، فما كان في طورِ البحثِ عن «الخصائصِ» و«المزايا» في الواقعِ البيانيّ، فلم تكنْ قطُّ الغايةُ تشريعيّةً تعليميّة مهمومةً بذكر القيم. يشهدُ لذلك نهجُ العقل البلاغي وحركتُه في تفسير «القرآن الْكريم» و«السّنّة النّبَويّة» وفهمهما .

لا يكونُ للعقل البلاغيّ أن يكونَ تشريعيًا تعليميًّا تقويميًّا لما ينظر فيه، بل همّه حينذاك أن يكشفَ «الخصائص» و«المزايا «القائمة في السُّنَنِ البيانيّةِ لبيانِ الوحيِ قُرآنًا وسنّة، ونتاج هذا العقلِ هو المعوّل عليْه، فليستْ البلاغة هي التي يراها النَّاشئة في أسفارِ مدرسة «المفتاح» على جليلِ فضلها، وفرقٌ بيْن أن يكونَ للسّفر فضلٌ في تحقيقِ ما نصبَ لَه، وأن يكونَ له فضلٌ في تجديدِ حركةِ العقل الذي يعملُ بِه، فيمنح القارئ زادًا منهجيًا أكثرَ ممّا يمنحُه من ثمارِ المنهجِ.

العقلُ البلاغِيّ الّذي أعتدُّ بِه هنا ليس هُو العقل الذي غايته صِياغة قوانين الكتابة بمعيار الجودة والجمال، لِيُنشِئَ نصًا على مِنوالِ نصٍّ مُسْتَمْجَدٍ. كلاَّ.

العقلُ الذي أعتدُّ بِه هو العقلُ الذي يسعَى إلى اشتقاقِ منهاج نظر في نصوصٍ قائمة يقاربها، ليثقبها، ليفتحَ خزائنها، هو العقل البلاغيّ

المستقبلُ للنّصّ، ليفهم ما هو مكنونٌ فيه، وأعلَى ما يقبلُ عليّه العقلُ البلاغِيّ، ليفهم ما يَطعم من خزائنه هو بيانُ الوحي قرآنًا وسنّة، هو العقل التّأويليّ للنّصّ، فإذا ما استخلص من طرائقه إلى الفهم منهجًا يسترشدُ بِه، ولا يُتعبد لمحاولة البلوغ إلى المقصد والمأمّ، لا حرج، لكنْ ليس هذا هو المحجّ الأعظم الأمجد.

***

أهمية الالتفات إلى البُعد الوظيفي للكلام في العقل البلاغيّ:

الدّراسات العلميّة للكلام ترَى له أبعادًا عدّة، وهي متفاوتةٌ في حظّها من عناية أهل النظر، وقد يظنّ أنّ البُعد التَّركيبيّ والتّصويريّ للكلامِ هو البُعد الأوحدُ الّذي يشتغلُ بِه العقلُ البلاغيّ، وأنّه هو معيارُ المفارقَة بيْنَ كلامٍ وكلامٍ.

قد يكون هذا ظاهرًا قريبًا إلى ظاهِرِ النَّظرِ في نتاج العقل البلاغيّ في مجالات معرفيّة متعدّدةٍ وَمُتَنَوِّعَة، ولكنّ الواقعَ العلميّ غيرُ ذلك، فالمفاضلةُ بين كلامٍ وكلامٍ ببعدِه التَّركيبيّ التّصويريّ مجردًا عنْ غيْرِه مَنَ الأبعادِ الأخرىَ للكلامً أمرٌ بعيدٌ عنِ الواقِعِ ، وهذا ما يلحظُه من له عنايةٌ بنتاجِ العقلِ البلاَغيّ لدَى عبدِ القاهر الجرجانيّ ، فقد اهتمّ بأبعادِ أُخرَى ، ومنْ أهمّ ما اهتمّ به هو البُعدُ الوظيفيّ والمقاميّ للكلام ، وهذاً ما أُوجزُ القولَ فيه في هذا المُفتتحِ.

من بعدِ أنْ فرغَ عبدُالقاهر ممّا استفتح به القول في كتابِه «دلائل الإعجاز» من بيان قيمة علم الشعر وعلم الإعراب في فهم معالم إعجاز القرآن الكريم، عقد فصلا في» تحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة وكلَّ ما شَاكلَ ذلك مما يعبّر به عن فضلِ بعضِ

القائلين على بعضٍ من حيثُ نَطَقوا وتكلّموا وأخبروا السامعين عنِ الأَغراض والمقاصد وراموا أَنْ يُعلموهُم ما في نفوسهم ويكشِفوا لهم عن ضمائرِ قلوبهم.

ومنَ المعلوم أنْ لا معنى لهذه العباراتِ، وسائرِ ما يجري مَجراها مما يُفْرَدُ فيه اللفظُ بالنّعتِ والصّفةِ، وينسبُ فيه الفضلُ والمزيّةُ إليه دونَ المعنى غيرَ وصفِ الكلام بحسنِ الدّلالة ، وتمامها فيما له كانت دَلالةٌ ، ثُمّ تبرُّجها في صورةٍ هي أبهى، وأزْينُ، وآنقُ، وأَعجبُ، وأحقّ بأَنْ تستوليَ على هَوى النّفس، وتنالَ الحظّ الأَوفرَ من ميل القلوبِ، وأولَى بأَنْ تُطلقَ لسانَ الحامدِ، وتُطيلَ رُغمَ الحاسد.

ولا جهةَ لاستعمالِ هذه الخصالِ غير أَنْ يُؤتَى المعنى من الجهةِ التي هيَ أصحُّ لتأديتهِ.

ويختارُ له اللفظُ الذي هو أخصُّ به، وأكشَفُ عنه، وأتمُّ له، وأَحرَى بأن يُكسِبَه نُبلاً، ويُظهرَ فيه مزيَّةً[2].

التبصُّر في مقالِه هذا يَهدِي إلَى أَنّه يلفتُ إلى الجانب الوظيفيّ المرتبط بالجانب المقاصديّ والمقاميّ للخطابِ، ويرى أنّ عيارَ المفاضلة بيْن كلام وكلامٍ هو ما يحقّقُ للكلام وظيفته الّتي بها يكون الاعتدَادُ، فَدَلَّ هذاً على ربطِه بيْنَ المستوى الفنّي للكلام ، والموقف الاجتماعيّ، فأنت لن تحسنَ الفهم لما أحسنَ المتكلم صَوغَهَ منَ البيانِ إلاّ في سياقِه المقاليّ والمقاميّ (الاجتماعي، والمقاصدي) الذي صيغ فيه وصِيغَ له، وقِيلَ فِيه.

ومنْ ثَم ركّز على ثلاث خصالٍ للكلام لِكمالها فِيه، وكماله فِيها، فبذلكَ يتحققُ لَه كمالُه في وظيفته.

تلك الخِصالُ هي «حسن الدّلالة» ، و«تمامها»، و«تبرجها [أيّ حصانتها وقوتها] في صورةٍ بَهِيّةٍ مونِقةٍ مُعجِبة.

الالتفات إلى(الدَّلالة) وصفتها الّتي تحقّق للكلام فضيلتَه، هُو التفاتٌ إلى الجانب الوظيفيّ للكلام، والالتفاتُ إلى تحقيقِ كمال الأداءِ الوظيفيّ للكلامِ يلزمُ أن يكونَ ذلك مرتبطًا بمقصِدية المتكلّم، وكلّ متكلمٍ لا يقصِدُ من بيانِه أن يُفهم كلامه مقسّطاً جملاً، بل يقصِد إلى أن يفهم كلامَه بِجملتِه المكوّنة من جملِه، وفقرِه، وفصُوله، ولذا يكون في مفتتح مقالِه ما يهدِي إلى فهمِ ما يتلوه، وقد يكون كمالُ فهم ما قدّم بحسن الاستشراف إلى ما يأتي، وقد يكون كمال فهم أولّه متوقفًا على آخره، فلا سبيل إلا بالانتصار ببعضِ الكلام على بعضٍ لفهمه.

الجملةُ - فطرةً بيانية إبداعًا وتلقّيًا - لا توصّلُ وهي جزءٌ من كلامٍ مرادَ المتكلم بها مفردة ، بل تفعلُ بمعونةِ منْ أترابها ، وعلى لاحِبِ مساقِها، لا يجهل هذا منْ له في العلمِ بالبَيانِ منزلٌ، ولا يجهلُ بل لا يغفل عنْ أنّ الجملة (وحدة نحوية من كلامٍ) يكونُ المفهومُ منها خارج سياقِها ووجودِها الجمعِيّ غيره وهي فيه، بلْ قد يكونُ المفهومان متعاندين، على الرّغم من تطابق البنية اللغوية لها فيهما.

ألا ترَى أنّ قولَ الرجلِ لزوجه: «أنت حرة» قد يكونُ في سياق تكريمًا لها، وإعلانَ ثقتِه بدينها وعقلِها، تفعلُ ما يهديها إليّه دينُها وعقلُها، فهو لا محالة الصّواب، وتكونُ العبارةُ نفسُها في مساقٍ آخر، إِعلاناً منه لها أنّه مفارقُها، لا يطيقُ قربها ؟

وجملة «اعملوا مَا شِئْتُم» جاءت في سياقٍ قرآنيّ يُفهم منها التّهديدُ والوعيدُ ، وذلك ما يظهر لك جليًّا في قولِ اللّه سبْحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ

الَّذينَ يُلْحدُونَ فِي آيَاتنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّار خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمنًا يَوْمَ الْقيَامَة اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(فصلت: 40).

وجاءتْ في سياق نبويّ في شأنِ «أهلِ بدْرٍ» يُفهم منْهُ التكريم، والوعد المجيد بحسْنِ العقبَى.

روى الشيخان بسنديهما عن علي - رضي الله عنه - في شأن ما كان من حاطب بن بلتعة بشأن الكتاب الذي بعث به لأهل مكة....: «قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللّه، دَعْنى أَضْربْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافق». قَالَ: «إِنَّهُ قَدْ شَهدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللّه أَنْ يَكُونَ قَد اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[3].

فالرّبطُ بيْنَ البناء اللغويّ، والسّياقِ المقاليّ، والمقاميِّ (الاجتماعيّ والوظيفيّ) للكلام لا يتأتَى لِذي نظرٍ في الْبيانِ أنْ يَغفل عَنْهُ فَضلاً عَنْ أن يَرَى عَدَمَ ضَرورتهِ أوْ أهمّيَّتِه.

وهذَا الرّبطُ بيْنَ البناءِ اللغويّ الفنّ) وَسِياقَيْه هُوَ فريضَةُ العنايةِ بالنّظر الْكليّ للكلامِ بِحيثُ لا يُكتفَى بِفَهمِ جزءٍ مَعزولاً عَنْ سِياقِهِ.

والعناية بفهم الكلام في سياقه هو من حقوق القائل على السّامع، والعربُ تعرفُ أنّ البلاغةَ ألاَّ يُؤتَى المتكلم منْ قِبلَ السّامعِ كما لا يُؤتَى السّامِعُ مِن قِبلِ الْمتكلّمِ.

يَقُول الجاحظُ: «كان عبدالرحمن بن اسحق القاضي يروي عن جده إبراهيم بن سلمة قال: سمعت أبا مسلم يقول: سمعت الإمام إبراهيم بن محمد يقول:

«يكفِي من حظّ البلاغة إن لا يُؤتَى السّامع منْ سُوءِ إفهامِ النّاطق، ولا يُؤتَى النّاطق من سُوء فهمِ السّامع».

قال أبو عثمان: وأمَّا أنا، فأستحسنُ هذا القولَ جدًّا»[4].

فلكلٍّ حقُوقٌ، ومنْ حقُوقِ المتكلم على سامعِه أن يفهمَ كلامه في سياقِه المقاليّ والمقامي، وفي مقاصدِه ومغازيه، وإلا حُمِّلَ البيانُ غيرَ ما يُريد منه صاحبُه، وتلك مَظلمةٌ، لا تُطاقُ عند أهلِ البصَرِ بالبيان، وهو من قبيل تحريفِ القولِ عن مواضِعِه.

تلك فطرةٌ بيانيّةٌ يَعِيها كلّ ذي منزلةٍ في البيانِ منتجًا أو مستقبلاً.

والعقلُ البلاغيّ يعرفُ أنّ للتلقّي منهاجَه، وأدواتِه، وضَوابطَه، وآدابه، وفي علوم القرآن ما يقُوم بتقريب ذلك إلى من شاءَ أن يبصرَ عرفانَ ذلِك العقلِ بكلّ ما يتعلّقُ بالتّلقّي، أو حقّ المتكلّم على السّامعِ، وفي القرآن الكريم والسّنة النّبويّة ما يهدي صراحة إلى ذلك.

***

مراجعة في المعوّلِ في بلاغةِ الكلام:

في مفتتح القول في «دلائل الإعجازِ» يعرضُ عبدُ القاهرِ لمنهاج سابقيه في الإبانة عنْ جوهر بلاغة البيان، وأشار إلى أنّ غيرَ هذا المنهاجِ هو الأعلى لأهلِ زمانه. قال:

«وَلَمْ أزلْ مُنْذُ خَدَمتُ الْعِلْمَ أَنْظُرُ فِيما قَالَهُ الْعُلَماءُ فِي مَعنَى الْفَصَاحَةِ وَالْبَلاغَةِ وَالْبيانِ وَالْبرَاعَةِ، وَفي بيانِ الْمغزَى منْ هذِه الْعباراتِ وَتفسِيرِ الْمرادِ بها، فَأجِدُ بَعضَ ذَلِكَ كالرّمزِ والإيماءِ والإشارةِ في خفاءٍ

وبعضُهُ كالتنبيه علَى مكانِ الْخبيءِ ليطلبَ، وموضعِ الدّفينِ ليُبحثَ عَنْهُ، فَيُخرجَ، وَكما يَفتحُ لك الطّريقَ إلَى الْمطلُوبِ ؛ لتسْلكهُ ، وتُضعُ لكَ الْقاعِدَةُ لِتبنِي عَليْها[5].

ووَجدتُ الْمعوّلَ علَى أنَّ ها هُنا نظمًا، وترتيبًا، وتأليفًا، وتركيبًا، وصياغةً وتصويرًا، ونسجًا ، وتحبيرًا»[6].

مناط النظر والمراجعةِ هنا قوله: «**ووجدت المعول على أنّ ها هُنا نظمًا وترتيبًا وتأليفًا وتركيبًا، وصياغة وتصويراً ونسجاً وتحبيراً**».

ينصُّ عبدُالقاهر علَى أنّ المعوّل عليْه عند العلماء الأوَّلين في شأن معنى بلاغة الخطاب وفصاحته (أدبيّته) أنَّ ههنا: نظماً، وترتيباً، وتأليفاً، وتركيباً وأن ههنا صياغة، وتصويراً، ونسجاً، وتحبيراً.

هذه خصالٌ ثمانٍ، وأنت إذا ما نظرت في هذه الثماني رأيتَ عبدالقاهر قد بدأ نسقها بـ «النّظم» وانتهى بـ «التّحبير»، وأنّه قد نسقها على نحو لم يقع منه في أي موطن من كتابه «دلائل الإعجاز» ولا غيره فيما أعلم.

وأنت إذا نظرت في نسقها رأيت في توقيعها النَّغميّ توازناً: «نسجًا وترتيبًا»، «تأليفًا وتركيبًا»، «صياغةً وتصويرًا» و«نظمًا، وتحبيرًا».

وهذا جديرٌ بأن نتلبّثَ عنده، نراجع النّظر لعلنا نبصرُ ما ينفعُ.

هنالك وجهان من النظر:

الوجه الأوّل:

أنّ الأولين : «النّظم والتّرتيب» أمرٌ يقع من المرءِ في فؤاده قبل أن يتحرك به اللسان، فهو دالٌ على مرحلة «التَّصوّر» في القلب ففيها يتمّ

«النّظم والتّرتيب» وفق منازل المعاني مِنْ بعَضِها من بعض، حتّى إذا ما تمَّ الأمرُ واكتمل وجاش به الصّدرُ كما قال «صحارٌ العبدي» – رضيَ اللّه عنْهُ[7] – كانت الأخرى: «التّأليف والتّركيب» وهذه هي مرحلةُ «التّصوير» والإبانة اللّسانيّة عمَّا هو مكتمِلٌ كونًا وخلقًا وتشكيلاً في الفؤاد، وهنا يتقاذف مكنونُ الصُّدور على الألسنة على وفق حالها في الفؤاد.

أمَّا الأربعةُ الآخر: «الصّياغة ، والتّصوير، والنّسج، والتّحبير» فتلك أنماطٌ لما يكون في مرحلة الإبانة: التّأليف والتّركيب».

وثَمّ مواضعُ في «دلائل الإعجاز» تجعلُ هذا التّأويل قريبًا إدراكُه، فكثيرًا ما يتحدثُ عبدُالقاهرِ عن صِنَاعةِ المعنى في النّفسِ نظمًا وترتيبًا، وأنّ المتكلّم إنّما يَنظمُ معانيَ في نفسه حتّى إذا ما فرغَ من نظمها، وترتيبها في نفسِه، لَم يَحتجْ إلَى أنَّ ينظمَ ألفاظه، لأنّها آتيةٌ على مِنوالِ ما قد صنعَ في معانيها، يقُول:

«لا يُتصوّرُ أن تعرفَ لِلَّفظ موضعًا من غيرِ أن تعرفَ معناه، ولا أنْ تتوخَّى في الألفاظ من حيثُ هي ألفاظٌ ترتيباً ونظماً، وأنّك تتوخَّى التَّرتيبَ في المعاني، وتُعملُ الفكرَ هناك. فإذا تمَّ لك ذلك أتبعتَها الألفاظَ، وقَفَوْتَ بها آثارَها. وأنّك إذا فرغتَ من ترتيبِ المعاني في نفسك لم تحتجْ إلى أن تستأنفَ فِكراً في ترتيبِ الألفاظِ، بل تجدُها تترتَّبُ لك بحُكْم أنّها خَدَمٌ للمعاني، وتابعةٌ لها ولاحقةٌ بها، وأنَّ العلمَ بمواقعِ المعاني في النَّفُس علمٌ بمواقعِ الألفاظِ الدّالَّة عليها في النُّطق»[8].

وقد عُني عبدالقاهر بتبيان الأمر في حال «التَّصوّر» ، وترتيب المعانِي في النفس، ثمّ مرحلة «التّصوير» والإبلاغ في أن تكون الصورة

«هي أبهى، وأزْينُ، وآنقُ، وأعجبُ، وأحقّ بأنْ تستوليَ على هَوى النفس، وتنالَ الحظّ الأوفرَ من ميل القلوب، وأولى بأن تطلقَ لسانَ الحامدِ ، وتُطيلَ رُغمَ الحاسد».

***

والوجهُ الآخر:أنّ هذِه الثّماني قسمان ، كلُّ قسمٍ أربعُ سماتٍ، وكلُّ قسمٍ ضربان:

القسم الأول: «سمات البناء»: النّظم، والترتيب، والتَّأليف، والتّركيب.

فالأول والثاني: «النّظم، والتّرتيب» يمثلان درجة «الجوار» بين عناصر الكلام البليغ: (علاقة ظاهرية).

والثالث والرابع: «التّاليف، والتركيب» يمثلان درجة «الحوار» بين عناصر الكلام البليغ: (علاقة باطنية).

البنـاء مبدؤه: «نظم»، ومنتهاه: «تركيب».

التَّناسق التّصاعديّ ظاهرٌ للعيانِ في جمع وتنفيذ هذه السمات على هذا النحو في ذلك الموضع الفريد، الذي لم يتكرر مثله في أيّ موطن من كتبه فيما أعلمُ.

هذه الأربعةُ مستوياتٌ متصاعِدةً لِبنيةِ صُورة المعنى الَّتي هي على وفق مستوياتِ بناء المعنى نفسِه في العقلِ. فالحديثُ عن مستوياتِ بناءِ الصُّورة، هو انعكاسٌ لما هو متحققٌ من مستويات بناء المعنى في النفسِ، فالصُّورة هِي مَجْلَى المعنى ومعدِنُه الذي منه يُستخرج المعنى بالسّياسة التّأويليّة، فالذي في الصّورة إنما هو الّذي كان في النفسِ، فما نقوله في

بنية الصُّورة في اللِّسان هو ما يُقالُ في بنية المعنى في الْجنانِ. وهذا تجدُ له ما يساندُه من كلامِ عبدِ القاهرِ أيضًا، يقُول:

«لمّا كانت المعاني إنّما تتبينُ بالألفاظ، وكانَ لا سبيلَ للمرتّبِ لها والجامع شَمْلَها إلى أن يُعلمَك ما صنَع في ترتيبها بفِكره إلاّ بترتيبِ الألفاظ في نُطقه، تَجوَّزوا، فكنّوا عن ترتيبِ المعاني بترتيبِ الألفاظ، ثم بالألفاظِ بحذفِ «الترتيبِ»، ثم أتبعوا ذلك منَ الوصفِ والنّعتِ ما أبانَ الغَرَض، وكشفَ عن المُراد كقولهم: «لفظٌ متمكّنٌ» يُريدون أنه بموافقة معناهُ لمعنى ما يليه كالشّيْءِ الحاصلِ في مكانٍ صالح يطمئنُّ فيه. و«لفظٌ قلِقٌ نابٍ» يريدون أنه من أجلِ أنَّ معناهُ غيرُ مُوافقٍ لما يليه كالحاصل في مكانٍ لا يصلحُ له، فهو لا يستطيعُ الطمأنينةَ فيه إلى سائرِ ما يجيءُ في صفةِ اللفظ ممَّا يعلمُ أنّه مُستعارٌ له من معناه. وأنَّهم نَحلُوه إيّاهُ بسببِ مضمونِه ومُؤّداه»[9].

وهذا الوجه من التأويل يؤدّي إلى أنّ الصُّورة الدّالة على المعنى تكونُ بحسبِ المعنى إمَّا نظمًا، وإمَّا ترتيبًا، وإمَّا تأليفًا، وإمَّا تركيبًا. وما هي بمستويات مترادفة أو متقاربة بل يُبْنَى الثّاني على الأوّل، والثالثُ على الثّاني، والرّابع على الثّالث، فأدناها هو النّظمُ، وأعلاها هو التّركيبُ[10].

نسقها عبدالقاهر في هذا الموضع الاستفتاحيِّ نسقًا أَوْمَأَ بصياغتها إلى ما بينها:

نظمًا – وترتيبًا

تأليفًا – وتركيبًا.

مستوياتُ البِناء تبدأُ بالنَّظم، وتنتهي بالتّركيب، وكلُّ مستوًى يطوِي فيه ما قبلَه من مستوياتٍ، وهذا احتاجُ إلى بسطة قولٍ لعلّي أبينُ عمَّا في

صدري، فيكون لي منك – أيها النّاصح – ما يقوّم عوجه، وينفي خبثه، ويدفعُ فَندَه، وذلك حقٌّ الكاتبِ الصّادق علَى الْقارئِ النّاصِحِ.

وأنا أزعمُ أنّ هذا الوجهَ الآخرَ هو الأولَى عنْدي بالاعتبارِ ؛ لما لَه منْ حضُورٍ مكين فِي ممارسَات بعضِ أهل العلم تلقّيًا لكتابِ اللّه سُبحانه وتعالى.

***

ومن البيّن أنّ علُوم العربية عَامة ، وعلْم البلاغة الْعربيّ خاصّة قائمٌ – في المقام الأوّل – لتحقيقِ حسنِ الْفهم عن اللّه تعالى، ولذا كانت أسفارُ التفسير والتأويل هي الأسفارُ الأصدقُ، والأَقوى دَلالة على الواقع العلمي والمعرفيّ للعقلِ البلاغيّ.

نَعم، قد تكون أسفارُ البلاغيين أظهرَ دلالة على التّصوّر النّظري للعقلِ البلاغيّ، ولكنّ التّصوّر المعرفيّ النّظريّ المدوّنَ للحقائق ليس هو كلُّ شيْءٍ هنا، هنالك جانبٌ أهمّ يُبنى على ذلك التّصوّر المعرفيّ النظريّ هو جانبُ تحليلِ البيان وتفسيرِه وتأويلِه، والعملِ علَى حسن الفهم والتّلقّي.

أنت تلحظُ في أسفار التّفسير والشّروح ونقد الشّعر التّطبيقيّ ما لا تجدُه في أسفارِ التّصوّر النّظريّ، وليسَ حسنًا الاكتفاءُ بالأسفارِ التي تدوّن الجانب النظري التي لا تقاربُ الواقع البيانيّ إلا مقاربة استشهادٍ أو استئناس أو تقريب للأمر الكليّ الذي تُعنى تلك الأسفار بتقريره بالحُجّة والبرهانِ الصّحيحين الصّريحيْن، والّتي لا تعملُ مليًّا على التحليلِ والتّذوق سعيًا إلى حسنِ الفهم.

هذا يفتح الطريقَ إلى أن نبصرَ الأمر في واقِعه المفتوحِ الجامعِ بيْن الجانبين:

- جانب التصور المعرفي النظري، وأكثرُ ما يتمثل في أفكار المدوّنةِ البلاغيّة
- وجانبِ الممارسة التأويلية للبيان العليّ والعالِي معًا.

***

وما ذهبت إليّه من أنّ بناء صُورة المعنى ذو مستوَيَاتٍ أربعة يُناصِرُه من وجه ما جاءَ عنْ عبْدِ القاهر من قولِه:

«أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمِه، وخصائصُ صادفوها في سياق لفظه ، وبدائعُ راعتهم من مبادي آيِه، ومقاطعِها، ومجارِي ألفاظها، ومواقعها، وفي مضربِ كلِّ مثلٍ، ومساقِ كلِّ خبرٍ وصورة، وكلّ عِظة، وتنبيه، وإعلام، وتذكير، وترغيب، وترهيب، ومع كلّ حجّة، وبرهان، وصفةٍ، وتبيان.

وبهرهم أنّهم تأمّلوه سُورةً سُورةً ، وعُشرا عُشرا [أيّ معقدًا وفصلاً] وآيةً آيةً، فلم يجدُوا في الجميع كلمةً ينبُو بها مكانُها، ولفظة ينكرُ شأنُها، أو يرى أنَّ غيرها أصلحُ هناك، أو أشبهُ، أو أحرَى وأخلقُ، بل وجدوا اتّساقاً بهرَ العقولَ، وأعجزَ الجمهور ونظاماً والتئاماً وإتقاناً وإحكاماً لم يدعْ في نفسِ بليغ منهم وَلَوْ حَكَّ بيَافُوخِهِ السَّماء موضعَ طمع حتّى خَرسَت الألسنُ عن أن تدَّعِي، وتقولَ، وخذيت القُرومُ فلم تملك أنْ تصُول»[11].

تأمّل قولَه: «وبهرهم أنهم تأملوه سُورة سُورة، وعُشرا عُشرا (أي معقدًا وفصلاً) وآية آية».

هذا دالٌّ على أنَّهم يعرفون فَحصَ البيانِ في مستويات متعدّدة، بدءًا من مستوى «الآية» إلى مستوَى «السُّورة»، وهي مستوياتٌ متصاعدة.

ودالّك علَى أنّ عبد القاهرِ ملتفتٌ إلى ذلك، وقائمٌ فِي وعيِه وعقلِه البلاغيّ.

ولنا أوعلينا أيضًا أن نتلبثَ عند قول عبد القاهرِ في فاتحةِ كتابِه« أسرار البلاغة وهو يبين أنّ الاختصاصَ في الترتيبِ هو الذي يجعل الكَلِمَ (الألفاظ) كلامًا. يقول:

«... المعنَى [أي العلّة والسّبب] الّذِي له كانت هذه الكلم بيْت شعرٍ أَوْ فصلَ خِطابٍ ، هو ترْتيبُها عَلَى طريقة مَعلُومة ، وحصُولها علَى صُورةٍ منَ التأليفِ مخصُوصة، وهذا الْحكمُ - أَعنِي الاختصاص في التّرتيبِ - يَقعُ فِي الألفاظِ مرتّبًا عَلَى الْمعاني الْمُرتّبة فِي النّفسِ، الْمُنْتظمة فِيها علَى قَضَيّةِ الْعقلِ. ولا يُتصوّر فِي الأَلفاظ وُجُوبُ تقديم وتأخير وتخصيص فِي ترتيبٍ وتنزيل، **وَعلَى ذلكَ وُضعتْ المراتبُ والمنازِلُ في الجملِ المركّبة وأقسام الكلام الْمدوّنة، فقيلَ: مِنْ حقّ هذا أن يسبقَ لشك، ومنْ حقّ مَا ههنا أن يَقعَ هُناك»**[12].

تأمّل قوله: «وَعلَى ذلكَ وُضعتْ المراتبُ والمنازِلُ فِي الجملِ المركّبة وأقسام الكلام الْمدوّنة» تجده قولاً يَهدي إلى أنّ أقسام الكلام المُدوّنة يخضعُ ترتيبهاَ تقديمًا وتأخيرًا لما يُساقُ له الكلامُ من المعنى.

وهذا هو التّرتيب والتّأليف والتّركيب، وفق مستويات بناءِ أقسام الكلام[13].

من هذا يتبيّن لك أنّ مفهومَ «البِناءِ الترتيبيّ» يطوي في رحمه «البناء النظميّ»، فما من ترتيب إلا وهو مبنيّ على نظم، ومفهوم « البناء التأليفيّ» يطوي غالبًا في رحمه «البناء الترتيبيّ والنظمي» معًا، و«البناء التركيبيّ» يطوِي في داخلِه - في غالبِ الأمر - بقيَّةَ المُستويات

البِنائِيَّة: النَّظم والتَّرتيب والتَّأليف[14] فالمُتدبّر لهذِهِ المستوياتِ لا يتأتى له حسنُ الفهم وتمامِه إلا من خلالِ حسنِ الفهم للبناءِ التركيبيّ.

ذلك أنَّ عمودَ «البناء التركيبيّ» هو العنصرُ القائمُ في كلِّ مكونات الخطاب/ النصّ، وهو عنصر كليّ يُسميه أهل العلم مقصودًا أعظم. ونعتُه بأنّه «أعظم» ملحوظٌ فيه ما في مادة (ع – ظ – م) من دلالة على الإحاطة.

«البناءُ التَّركيبيّ» هُو المرحلةُ النّهائيّة العُليا لبناءِ النّصّ ووجوده البيانيّ، وحسن فهمِهِ هو الخطوةُ الأُولَى لحسنِ فهم التأليف، ثُمّ الترتيبِ، ثُم النّظم.

وحسنُ فهم الخواصّ النَّظمية في بنية الجملة لا يكونُ إلاّ فِي ضَوءِ الغَرضِ المُساقِ لَه الكلامُ، كما يقولُ عبدُالقاهرِ.

وهذا الغرضُ المساقُ له الكلامُ لا يعرفُ تحريرُه وضبطُه إلاّ مِنْ خِلالِ حُسنِ النّظرِ فِي البناءِ التّركِيبيّ للنّصِّ.

والنَّظرُ المتدبّر في السّورة إذنْ يتخذ منهاج الحالّ المرتحل، يتزَّودُ من كلِّ مرحلةٍ زادًا للأُخرى جيئةً وإيابًا.

ولكلّ نصّ بليغ سواءٌ كان من بيان الوحي قرآنا وسنّة، أو كان منْ بيان الإبداع شعرًا ونثرًا فنيًّا بِنَاءٌ نصّيّ (أي بناء تركيبي) ولكلّ بناءٍ خصائصُه، فليست الأبنيةُ التركيبيّةُ في نتاج شاعر ما على نمط واحد، بل تكادُ كلُّ قصيدةٍ لبنائِها التركيبيّ (النصّيّ/ الكلّيّ) خصائصُ تميزهُ عَنْ غيرِه في قصيدةٍ أُخرَى للشّاعرِ نفسه، والفنّ الشّعريّ نفسه مدحًا أو افتخارًا.... وكذلك الأمرُ في البيانِ القرآنيّ المُعجز، بلْ تميز السّورِ في بنائها التّركيبيّ (النّصّيّ) أعظمُ، وخصائصُه أوفرُ.

و«الخصائصُ» جمع «خصيصة»: «فعيلة» أي خصّصت الأمر، أيَ أفرد بِه دون غيرهِ ، فـ «الخاصيّة» هي ما يكون في الشّيء، ولا يَكُونُ فِي غَيرهِ إمّا باعتبارِ وجودهِ، أي لا يوجد إلا فيه ، فهو كالسّمة التي تفرز بيْن الشيءِ، وكلّ ما عداه، وإمّا باعتبار كيفية وجودهِ أو مقدارِ وجوده، أو فِي مقام وجوده، فالخُصُوصية غيرُ مخصُوصة بالانفراد وجودًا، فقد يكونُ الشيءُ موجودًا فِي أكثرَ منْ شيءٍ، ولكن لكلٍّ ما يخصّه من كيفٍ أو مقدارٍ أو مقام... وبهذا يفهم قول البلاغين : خصائص المعاني وخصائص التراكيب(15).

بناءُ على هذا فخصائص البناء التركيبي لا يلزم أن يكونَ ما نحنُ فيه غيرَ موجودٍ مثله في نوعِه في سورةٍ أخرى، أو بيانٍ آخر، بل يكونُ، ولكن على وجهٍ من دون ما هو قائم، فالتميُّز يكون من جهةٍ أو جهاتٍ لا تكون في غيره.

وهذا ما تسعى هذه الدّراسة الكشف عنْ وجهِ الحق فِيه.

***

تفصيل بين مستويات البناء:

إذا ما كنت مصطفيًا أنّ مستوياتِ بناءِ صُورةِ المعنى فِي العقلِ البلاغيّ على أربعةِ مستوياتٍ نظرًا إلى طلاقة مجال «المعنى» بدءًا من معنى الجملة (وحدة نحوية) إلى معنى النص (وحدة دلالية) فبي حاجةٌ إلى بسطةِ نظرٍ فِي كلّ مستوىً.

المستوى الأول (النظم):

هو توخّي معاني النّحو فيما بيْن معاني الكَلم فِي بِناء الجُملة عَلَى حسبِ الأغراضِ والمعاني الّتي يُقالُ لها الْكَلامُ(16).

والكلمة التي تقُوم معاني النحو بعقد أواصر القربى بين معناها ومعنى أترابها في بناء الجملة لا اعتبار بكونِ معناها حقيقة أو مجازًا، فى مجالِ نظم الجملة، فالمجاز عند عبدالقاهر خاضعٌ لسلطان النَّظم شأنُه شأن أيّ كلمة أُخرى هو ناشئٌ عن النظم، وخاضع لسلطانه، ومن ثمّ تكون كلُّ فنون المجاز على تنوعها من النظم: «فلا يتصوّر أن يكُون هُهنا فعلٌ أو اسمٌ قد دخلته الاستعارة من دونِ أن يكون قد ألّف مع غيرِه ...»[17].

وكذلك كلٌّ فنون البديع، لأنّ الأمرَ في بلاغتها وحسنها راجعٌ إلى المعنى الذي هو راجعٌ إلى النظم[18] فمن النّظم يكون المجاز، ويكون البديع، كمثل ما يكون غيرهما من أساليب البلاغة.

النظم في بناء الجملة مُهيمنٌ على كل مكوناتها على تعددها وامتداداتها وتنوعها. وهذا من عبدالقاهر إحكام نظرٍ، وانفتاح رؤية ، وموضوعية تناول.

المهم أنّ النظم باعتباره مستوى من مستوياتِ البِناء يقُوم من علاقاتٍ إعرابية على تنوعها قائمةٍ بيْن معاني الكلم في بناءِ الجملة على امتدادها على نحو ما تراه في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **الْحمدُ للّهِ ربِّ الْعالمينَ الرّحمنِ الرّحيمِ مَالِك يَومِ الدِّين** ﴾ (الفاتحة: 2-4).

هذه الآيات إنما هي جملة واحدة تكونت من مسند إليه (الْحَمدُ) ومسْندٍ (للّهِ) وتوابع نعتيّة: ربِّ الْعالمينَ . الرّحمنِ الرّحيمِ. مَالِك يَومِ الدِّين) فالعلاقاتُ القائمة بيْن مكوّنات هذه الآيات ثلاث علاقات:

علاقةٌ إسنادية (بيْن ركني الجملة).

وعلاقة تقييديّة في (ربّ العالمين) (مَالِك يَومِ الدِّين).

وعلاقة تبيينيّة في النعوت لاسم الجلالة المجرور باللّام: (ربّ العالمين، الرّحمن، الرّحيم، مالك...).

ومثل هذا تجده في قَولِ اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ **ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** ﴾ (البقرة: 2-4).

وذلك على وجهٍ إعرابيّ يجعل قوله: (الكتاب) بدلاً من اسم الإشارة، وقوله: (لاريب فيه) خبر اسم الإشارة، وقوله: (هدًى للمتّقين) خبرًا ثانيا، وقوله: (الذين يؤمنون.... يوقنون) تابعًا للمجرور (المتفين) فتكون هذه الآيات الثلاث جملة نحوية واحدةً ممتدّة، قائمة على علاقات نحوية إعرابيّة: «النظم» وقوله سبحانه تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** ﴾ (الحج: 61-62).

العلاقات التي تقوم عليها بنية هذه الآيات، هي علاقات نحوية، ومن ثَمّ قلتُ إنّ هذا من قبيلِ النّظم.

ومنّ هذا ما تراه في تتابع الجمل في قول اللّه تعالى: ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً * وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً * وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ**

رَهَقاً * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً * وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً * وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً * وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً * وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً * وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ (الجن: 15-1).

فهذه جملٌ (آياتٌ) وقعت جمعيها في محلِّ نصب مقول القول (فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنا...)[19] فما بينها من نسق هو مِنْ قَبِيلِ النّظم ، هذا من حيثُ العلاقات الإعرابية، أما من حيثُ مواقع بعضِها من بعض، فذلك من قبيل «الترتيب»، فهي من حيث إنّها متعاطفات «نظم»، ومن حيثُ تقدم معطوفٍ وتأخير آخر من قبيل «الترتيب»، فالنّحوُ لا يمنع عربيةً أن تقدم معطوفًا على معطوف، ألا ترَى أنّك إذا قلت: «أكْرمْتُ محمدًا وخالدًا »، لا يمنع النَّحو أن تقدِّمَ «خالدًا» على «محمدٍ»، بينما قد تمنع ملاحظة الحال واقتضاؤه تقديم «خالدٍ» على «مُحمّد» ، فيكون تقدُّمَ «محمدٍ» حينئذٍ واجبًا بلاغةً لا نحوًا .

وألا ترى أنّه في قولِ اللّه تعالى في سورة (المعارج): **﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ× وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾** (المعارج: 6-14).

يمكنُ في غير القرآن أنْ يُقال: لوْ يفتدي مِنْ عذابِ يومئذٍ بصاحبته، وفصيلته، وأخيه، وبنيه. ولا يكون ما يمنعُ عربية من ذلك، وإن منع من ذلك السياقُ القرآني والمغزى[20].

وجاء في سورة (عبس) قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ (المعارج: 33-37).

ويجوز في علم النحو أن يقال في غير القرآن: فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أمّه وأبيه وأخيه، وصاحبته، وبنيه... وما شاكل ذلك، لأنها متعاطفاتٌ، و«الواو» لا تقتضي ترتيبًا في أصل دلالتها. بينما ذلك لا يستقيم بلاغة في هذا السياق القُرآنيّ[21]. فلكلِّ ترتيبٍ سياقُه واقتضاؤه، وبهذا لا تكون العلاقات فيما بين الكلم علاقات مرتبطة بالموضِع الإعرابي للمرتبات، بل هي علاقاتٌ معنوية سياقيّة.

وكذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ **بسْمِ اللهِ الرّحْمنِ الرّحيم إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا** ﴾ (الزلزلة: 1-5).

فهذه جمل ذات قيد معنوي (الشرط) ممّا يجعلُ العلاقاتِ بينها علاقاتٍ إعرابيّة، فهي من قبيلِ مستوَى النّظم.

ومن هذا قولِ اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ **وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾.

السورة كلها قائمة مكوناتها على أسلوب واحد هو أسلوب القسم: المقسم بِه [والعصر] والمقسم عليْه [إنَّ الإنسانَ....] فهذا نظم.

وعلى الرَّغم من العلاقات الإعرابية بين مكونات السورة، فإنّك تلحظ علاقات المعاني الجزئية في ترتيب المعطوفات: (آمَنُوا، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) فعلاقة التّعاطف هنا أساسُهَا العلاقات المعنوية بيْد أنّ أداةَ الرّبط أداةٌ نحويّة (الواو)، والعلاقات الإعرابية في الآية لا تمنع أن يقال في غير القرآن: إلا الذين آمنوا، وتواصوا بالحقّ، وعملوا الصّالِحاتِ، وتواصَوا بِالصّبرِ. لكنَّ الذي يمنعُ تغيير النَّسق هو العلاقات المعنوية الجزئية، فلا يستقيم من حيثُ المعنى أن يُقدّم العملُ الصَّالح على الإيمانِ، لأنّ الإيمانَ هو الأساسُ الّذي يُبنى عليْه، والعمل الصالح داخل في الإيمان دخولاً ضمنياً: الإيمان اعتقادٌ، وقولٌ، وعملٌ، ولا يستقيم بلاغَةً، لا نحوًا أن يقدم التّواصِي بالحقّ على العمل الصالح؛ فالتّواصي بالحقِّ أخصُّ من العملِ الصّالح، كما أَنّ التّواصي بالصّبرِ مترتبٌ علَى التّواصِي بالحق، لأنّه إذا لمْ يُتواصَ بالحقِ بعدُ، فعلامَ يتواصَى بالصبر. هذَا التَّسلسل المعنويّ هو الذي يحقق للسّورة بنيتها الكليّة.

***

وهذا ما تراه في قول القطامي:

فهنَّ يَنْبُذنَ من قولٍ يُصبْنَ بهِ مَواقعَ الماء من ذي الغُلّة الصَّادي

فالعلاقات القائمة بين معاني الكلم في بنيةِ البَيت علاقاتٌ إعرابيّةٌ، لا تَخرج عن علاقة الإسناد، والتَّقييد ، والتَّقرير، والتّبيين، ومن ثمّ كان بناءُ هذا البيت كلّه ينتمي إلى مستوى «النظم»، وهو كما ترى متماسكٌ ، فلا يفهم معناه إلا ببلوغِ أخراه.

يقُول عبدالقاهر: «فإذا نظرتَ إلى قول القُطامي: .... وجدتُك لا تحصلُ على معنًى يصحُّ أن يقالَ إنه غرضُ الشاعرِ ومعناه إلاّ عند قولهِ: «ذي الغلة»[22].

ومنه هذا الأعشى:

ما روضةٌ من رياض الحزن معشبةٌ   خضراءُ جادَ عليها مسبلٌ هطلُ
يضاحكُ الشمسَ منها كوكبٌ شرقٌ   مــؤزّرٌ بعميم النبت مكتهلُ
يوماً بأطيبَ منها نشرَ رائحة   ولا بأحسن منها إذْ دنا الأصلُ

ومثله قول المرقش الأصغر: عمرو بن حرملة الضبعيّ :

وَمَا قَهوةٌ صَهباءُ كالمسك ريحُها   تعلّ عَلى النّاجود طورًا وتقدحُ
ثوتْ في سَباء الدّنّ عشْرينَ حجّةً   يُطانُ عليْها قَرمَدٌ وتروّحُ
سَباها رجالٌ منْ يَهودَ تباعدُوا   لجيلانَ يُدنيها منَ الشّوق مُرْبحُ
بأطيبَ منْ فِيها إذا جئتَ طارقًا   مِنَ الليل، بلْ فُوها ألذُّ وأنصحُ

فهاتان صورتان شعريتان كلُّ صُورةٍ جُملةٌ واحدةٌ ممتدَّةٌ في رحمها جملٌ صُغرَى، ومع ذلك فهي على امتدادها من قبيل «النَّظم»، على ما لا يخفَى عليْك.

والنَّسقُ بأداة في مستوى «النظم» ليسَ علَى إطلاقه عند البلاغيين ، وإن تحقّق للمتعاطفين التّوافق في الخبريّة أو الإنشائيّة، بلْ إن اشتراطَ الجامعِ المعنويّ أولى من اشتراط التَّوافق الخبريّ والإنشائيّ، فحيثُ تعاطفتْ جملتان، بل مفردان بأداة نسق في أي بيانٍ عالٍ، بَلْهُ البيانُ العَليّ المُعجز، فالعقل البلاغيّ باحثٌ عَن العلاقةِ الجامعةِ بيْن المتعاطفين.

الجملةُ على تنوّع امتداداتها الأفقيّة بدءًا من «المسند» و«المسند إليه» إلى ما لا يحدُّ هي وحدةٌ نحويّةٌ، تقومُ في ما بيْن عناصرها علاقاتٌ نحويةٌ ، لا تكاد تعدُو ما أشرتُ إليْه من «الإسنادِ» و«التّقييد»، و«التّقرير» و«التّبيين» .

وإذا ما كان مستوى «النظم» يكادُ ينحصرُ في ما هو وحدة نحويّة (الجملة) هي أصغرُ وحدةٍ لغويّةٍ مفيدةٍ قابلةٍ للتّحليل، فإنّ هذه الجملةَ

(الوحدة النحوية) يُمكن أنْ تكون نصّا (وحدة دَلاليّة) إذا لم تكن بحاجة إلى غيرها ؛ ليفهم المراد منها ،أيْ أنّه لا يلتفتُ إلى «سباقٍ» لها أو «لحاقٍ» ، فحينئذ يمكنُ أن تكون «نصًا»، لأنّ عيارَ النصّية ليس عيارًا كميًّا، بل هو عيارٌ ناظرٌ إلى استغناء القولِ عن غيره ، ليتحقق كمالُ فهمِه .

وبهذا يبيّن لك أن تنوّع مستويات صُورة المعنى ليس مرتبطًا بنصيّة الخطابِ ، فقد يكون النّصُّ مقتصرًا على مستوًى واحدٍ، أو مستويين ، أو أكثر .

نظرُنا إلى مستوياتِ بناءِ صُورةِ المعنى، وهي مستوياتٌ تبدأُ بما عمُودُه العلاقاتُ النَّحويّة، وتدخلُ في ما وراء ذلك ممّا عمودُه العلاقات الدلالية، وليس إلى ما بِه يكونُ الكلامُ «نصّا» ، فنحنُ هنا نَجرِي على الغالب في بابِ البيان العَليّ: بيانِ الوحي قرآنًا وسُنّة، وعلى الغالبِ في بابِ البيان العالي: الإبداع الأدبيّ شعرًا ونثرًا، فالغالبُ أن يكون «النصّ» صُورة معناه ذات مستويات مُتداخلة : «نظم»، فـ «ترتيب»، فـ «تأليف»، فـ «تركيبٌ»، كلّ مستوًى يحتضنُ الَّذي قبلَه.

ما يكونُ بِه الكلامُ «نصًا» أعمُّ مِمّا نحنُ بصددِه من بيانِ مستوياتِ بناءِ صُورة المعنى. إذ يتحققُ ذلك في أيِّ مستوى منْ مستوياتِ بناء صُورة المعنى .

***

والمستوى التالي مستوى «النظم» هو(الترتيب)

«التّرتيب» توخّي ما يكون بيْن معاني الجُمل من علاقات غير الإعرابية (أي ما يكون بيْن المعاني الجزئية القائمة في كلِّ جملةٍ) في

بناء الصّورة الكلية: (النجم/ الصورة الكلية/ الفِقرة) عَلَى حسبِ الأغراضِ الّتي يُقالُ لها الْكلامُ.

ويدخلُ في هذا ما يقع بيْن الجمل من كمال الاتصال، وشبهه على اصطلاحِ البلاغيين.

وذلك ما تراه في قولِه تعالى: ﴿ **ذَلِكَ الْكِتَابُ، لاَ رَيْبَ فِيهِ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾.

هذه ثلاثُ جملٍ – على وجهِ من التأويل(23) – بيْنها علاقاتٌ معنوية، والرّابطُ ليسَ عاملاً لفظيًّا، ولذا جعل جمهرة البلاغيين ما بيْنها من ربط معنوي كمال اتصال.

يقُول عبدالقاهر: « ومثال ما هو من الجملِ كذلك قوله تعالى: ﴿ **آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه** ﴾ قوله: ﴿ **لا ريبَ فيه** ﴾ بيان وتوكيد وتحقيق لقوله: ﴿ **ذلك الكتاب**﴾ وزيادة تثبيت له، وبمنزلة أن تقول: «هو ذلك الكتاب»، «هو ذلك الكتاب» فتعيده مرة ثانية، لتثبته، وليس تثبيت الخبر غير الخبر، ولا شيء يتميز به عنه، فيحتاج إلى ضام يضمه إليه، وعاطف يعطفه عليه»(24).

وإذا ما تبصّرتَ أعظَمَ آيةٍ في كتابِ اللّهِ سبحانه وتعالى: «آيةَ الْكرسّي» ألفتيتها من تسع جُمل، كلّ جملةٍ أقيم بِناؤها على مستوى النّظم، بيدَ أنّ بناءَ الآية كلّها أقيم على مستوَى التّرتيب. يُقول اللّه سُبْحانَهُ وتعالى: ﴿ **اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِه يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِه إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** ﴾ (البقرة: 255).

العلاقات بيْن الجمل ليست بعلاقاتٍ إعرابية، بل هي علاقات معنوية على المستوى الجزئي، كما لا يخفى على متبصّرٍ. وهذا من مستوى الترتيب في بناءِ صُورة المعنى.

وتنظر في قَول الشّاعِر :

قَدْ يَنْفَعُ الأَدَبُ الأَحداثَ في مَهَل وَليْسَ ينْفَعُ بَعدَ الْكبرَة الأدبُ

إنَّ الْغُصُونَ إذا قَوّمْتَها اعْتَدَلَتْ ولـنْ تَلِينَ إذا قَوّمْتَهَا الْخشَبُ

فترى أنَّ الشَّطر الثَّاني من كلٍّ قد عُطف على الأوّلِ ؛ فهذا من «النظم» وإذا نظرت إلى علاقة البيت الثاني كلّه بالبيتِ الأول رأيتها علاقة معنوية لا إعرابية ، فهو في قوة التوكيد البياني، وليس التوكيد النحوي. والتوكيد البياني على ما لا يخفى ليس من قبيل العلاقات الإعرابية (معاني النحو الوظيفية)[25].

والبيت الثّاني بمثابة المشبه به، والأول بمثابة المشبه، لأنهما معًا من قبيل «التّشبيه الضمني»، وهو صُورة من صُور «التشبيه التمثيلي» والعلاقة بينهما علاقة معنوية ، فهما متوافقان متآزران في المعنى، لهذا كانت علاقة البيت الثاني كله بالبيتِ الأول علاقة» التّرتيب» وليس «النظم»، وإن كان عبدالقاهر جعل ما سماه في»الدلائل»: «الاتصال إلى غاية»، وأسماه البلاغيون المتأخرون» كمال الاتصال» من قبيل «نظرية النظم « ممَّا يجعلنا ندركُ أن «نظرية النظم» ليست بالمقصورِ أمرُها على العلاقاتِ النَّحويّةِ الإعرابيّة، فيدخلُ فيها المُستوَى الثَّاني من مُستوياتِ بناءِ صُورةِ المعنى: «الترتيب».

وأنت إذا ما تبصَّرت الصّياغة في كلٍّ ألفيت صنعةً لطيفةً، تأمّل قوله: (قد ينفع) وقوله : (في مهلٍ) ثم تأمل القطع في (ليس ينفعُه)،

وتقديمه الظرف على الفاعل (بعد الكبرة) (الأدبُ) إشارة إلى مصدر انتفاء النّفع ليس الفاعل، بل هذا الظرف، فهو ليس بمنتفع كيفما كان مستوى الأدب وإتقانِه، وتأمَّل مقابلته: (بعد الكبرة) (الأحداث) ولم يقل (عن صغر) فاصطفى كلمة (الأحداث) الَّتي تحمل معنى التَّجدّد والتَّغير، والمتوائم مع النّفع المثبت في صدر البيت.

وتأمَّل التّناظر بين (إنَّ) في صدر البيت الثاني، و(قد) في صدر البيت الأوّل، ومناظرة (الغُصُون) في الثاني (الأحداث) لما في كلّ من الليونة، أي لما في كلّ من عامل القابليّة، ثم اختيارُه كلمة (اعتدلت) ولم يقلْ: «لانَت» لأنّهاً بنفسها ليّنة مع ما قدْ يكونُ فيها من عِوج، وهذا الاعتدال لا يرتدّ؛ لأنه صنعة تقويم، فسيبقى أثرُ التقويم لا يفنى، بخلاف الخشب، فنفى أن يلين، وكان النفيُ بـ (لن) مقدمة النتيجة المقدمة على الفعل (إذا قومتها) مستعمِلاً (إذا) قائلاً: (لنْ تَلِينَ إذا قَوّمْتَها الْخشَبُ)[26] بينما جاءت النتيجة في الشّطر الأول بعد الفعل (إذا قومتها اعتدلت).

كذلك يَتَبَيّنُ لك مُستوَى «النَّظم»، ومستوى «التّرتيبِ» في هذين البيتين، وأنت ترى أنَّهما على الرّغم من أنّهما من قَبيل المعاني العقليّة، وأنّ ذَنوب الخيال قليلٌ إلاّ أنّ الصّنعة والاختيار، واستدراك صوابٍ بيانيٍّ له في البيت منزلٌ عليٌّ.

وغير قليل مما يعرفُ بـ «التشبيه الضميّ» هو إلى الترتيب أقرب، إذا لم يكن بيّن ركنيه عاملٌ لفظيٌّ. التّناسُقُ الّذي بيّن معاني الجُمل هو الّذي أسميه «ترتيبًا» ، وهو ألطف من التّناسق الذّي بين معانِي الكلم فِي بناء الجملة .

***

ويبقَى هنا ما هو محلُّ مراجعة:

عطف جملة على أخرى لا محلّ لها من الإعراب، وليس لها قيد معنوِيّ كما في قولِ أبي تمام في مطلع قصيدته «الرائية» في وصفِ الربيع:ربيع الكونِ، وربيع الخلَّافة: المعتصم:

رقّتْ حَواشي الدّهرِ فَهِيَ تَمرْمرُ وَغـدَا الـثّرى فِي حلْيِهِ وتَكسّرُ

منْ أي المستوياتِ هو؟

أمِنَ «النَّظم» نظرًا إلى أنَّ الجامعَ بيْنهما أداةُ عطف «الواو» فإحداهما معطوف، والآخر معطوف عليْه، وإن لم تشاركها في حكم إعرابيّ ؛ فالجملةُ المعطوفُ عليْها (الأولى) لا محَلّ لها من الإعراب، فهي ابتدائيّةٌ، والابتدائيّةٌ من الجمل التي لا محلّ لها من الإعرابِ، أَمْ هو من «الترتيب» نظرًا لأنّ العلاقاتِ بيْنهما ليسْ نَحوية، بل المسوّغ لـ «واو العطف» معنوي: أي معنى الجملة الأولى (المعطوف عليها) والأخرى (المعطوفة) ومثل هذا ينظرُ فيه كما يُنظرُ إلى الغرضِ أيْ إلى ما كان الرَّبطُ بسببِ من التّقارب الغَرضيّ كما في عطْفِ القصّة على القصّة ؟

الذي أرجّحه أنّ عطفَ جُملة على أخرى لا محلّ لها منَ الإعراب، وليسَ لها قيدٌ معنويّ هومن قبيلِ «التّرتِيبِ» علَى نحو ما رأيتَ فِي مطلعِ قصِيدةِ أبي تمام.

ومن هذا ما تراه في قولِ اللّه سُبحانه وتعالى: ﴿ **أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (البقرة : 5).

إذا ما جعلنا قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **الّذينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...** ﴾ (البقرة:3-4) تبيينا لقوله تعالى ﴿ **المتقين** ﴾ في: (هُدًى للمتقين) فقوله تعالى: ﴿ **أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ** ﴾ استئنافٌ بيانيّ لترقب السّامع العرفان

بحال من ذكرت نعوتهم قبلُ. فيكون عطفُ ﴿ **أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ على جملة لا مَحَلّ لها من الإعرَابِ، فالعطف يسميه البلاغيون «التَّوسط بيْن الكمالين»، وحقّ هذه «الواو» أن تسمّى «واو وصل» لتبقى «واو العطف» مصطلحًا نحويًا خاصًا بربط المفرد، وما في قوتِه من الجمل الّتِي لها مَحلّ إعرابي أو قيدٌ معنوي.

وإن جعلنا قوله جلّ ثناؤه: ﴿ **الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ....** ﴾ (البقرة: 3) مستأنفًا لا نعتًا للمتقين، فيكون مبتدأً، وقوله عز وجلّ: ﴿**أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ** ﴾ خبرًا له، عطف عليْه ﴿ **أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ كان هذا العطفُ من قبيل مستوى «النظم»، لأنّه عطف جملةٍ على أخرى لها محلٌّ من الإعرابِ.

***

ومن هذا قول المرقش الأكبر: عمرو بن سعد الضّبعيّ:

النَّشرُ مِسْكٌ، والوجوه دنانيرُ وأطرافُ الأكفِّ عَنَمْ(27)

بناءُ البيتِ من ثلاثِ جملٍ كلٌّ جملةٍ أقيم بناؤها على النظم (العلاقات الإعرابية) أمَّا ترتيب الجمل الثلاثة فيما بينها، فليس على أساسٍ من معاني النحو في شيءٍ، ولهذا يجوزُ في النحو أن تقدّم الثّالثة على الأولى ، وتؤخّر الأول ، فتجعلها الأخيرة، ولا يكون ما يُمنع نحوًا، أمَّا المعنى الشّعريّ فضلا عن الوزن، فإنّه يَمنعُ من أن يُقدّم شيءٌ على شيٍ من أنّ العلاقات بيْن الجملِ الثلاثة علاقاتٌ معنوية:

رائحة النشر أولى بالتَّقديم على ما بعدها، ثم يتلوه حال الوجوه، ثم حال أطراف الأكف. وذلك وفقًا لما يقتضِيه منطقُ ترتيب المُدْرَكات في السبقِ :

أوّل ما يلقاك وتتلقاه هو الرَّائحة، فإنها لا تحاجزها حواجزُ، فهي تشمُّ من وراء، وفي حندس الليل، ثَم يتلو ذلك البصرُ بحال الوجوه، وهي إلى الحالِ النَّفسيّة أقربُ منها إلى الحال الحسّيّة ، بمعنى أنّ مناطَ الالتقاءِ بين الوجوه والدَّنانير ليس الجانبَ الشَّكليّ والحسيّ وحده، فقد تكونُ الوجوهُ إلى السُّمرة أقربَ، وبرغم من ذلك تُشَبّه بالدّنانيرِ في صفاءِ اللّونِ، وليس في صفرتِه، وفي إشراق أثرِها النَّفسيّ بالبُشري واطمئنانِ النَّفس عند بصرِها بالدِّينار، ثمّ يأتي ما لا يُمكنُ إدراكه إلا بالملامسةِ، ولا يُراد من التّشبيه بالعَنم اللّونُ وحده، بل ما وراءَ اللَّون ؛ فلونُ الْحمرة في أطرافِ هذه الأكفِّ جُوانيّ المصدر لا برانيّه: أطرف الأكفِّ إذا كانت عَنَمًا، فهي تمتاز بأمرين: اللّين، والحُمرة الَّتي هي وليدةُ نعومةٍ تكشفُ على لونِ الدّم الجارِي فيها، وهو دمُ شبابٍ وأنوثةٍ تنشرحُ بها النفسُ عند المَرْأى والمَلْمَسِ[28].

وعلى أيٍّ ، فالَّذي قوَّى جعلَ هذا من «الترتيب» أنّ هذه «الواو» ليست «واو» عطف تشرك ما بعدها ما قبلها في حُكمٍ إعرابيّ، أو قيدٍ معنوي، بل أشركت ما بعدها فيما قبلها في الغرضِ «فهي عندي « واو وصلٍ»، وعلينا أن نفرق بيْن «واو العطف» النّحويّة، وبيْن «واو الوصل» البلاغية/ البيانيّة، وبيّن أنَّ بيْن معنى كلّ جملةٍ من هذه الجمل في البيت من التَّلاحظ ما يجعل ما بعد «الواو» لا يأنسُ بمقامه إذا ما قدّم، بلْ ينبو به الحالُ، ويقلقُ مضجعه.

العبرةُ عندي في التَّفريق بيْن مستوى «النّظم» ومستوى «التّرتيب» في جملتين بينهما أداةُ ربطٍ هي وظيفةُ الأداة، فالأدواتُ بوظائفها، ألا ترَى أنّه ليس لنا أن نَعدّ ما تصدر بـ «واو الاستئناف البيانيّ» أو ما يُسمّى

بـ «عطف القصّة على القصّة» من قبيل المعاني النحويّة ، لأنّه ليس الذي اعتمد هنا أمرًا نحويًا بل هو أمرٌ بيانيٌّ، فكان مثلُ هذا جديرًا بأنْ يكون من قبيل «التّرتيب» لا «النّظم».

والنّسقُ بأداة في مستوى «النّظم» ليسَ علَى إطلاقه عند البلاغيين، وإن تحقّق للمتعاطفين التّوافق في الخبريّة أو الإنشائيّة بلْ إن اشتراط «الجامع المعنويّ» أولى من اشتراط التّوافق خبرًا، أوْ إنشَاءً، فحيثُ تعاطفتْ جملتان بل مفردان بأداة نسق، فالعقل البلاغيّ باحثٌ عن العلاقة الجامعة بيْن المتعاطفين على مًا بيّنتُ لك من عطف قولِه: «الوجوه الدنانيرٌ» على قولِه: «النشر مسكٌ»، وترى ذلك بارزًا في نظر العقل البلاغيّ في مقتضي العطف في قول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ **أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإبل كَيْفَ خُلقَتْ * وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ** ﴾ (الغاشية : 17-20).

يقُول الزمخشري (ت: 538هـ) : «قد انتظمَ هذه الأشياءَ نظرُ العرب في أوديتهم وبواديهم ؛ فانتظمها الذّكر على حسب ما انتظمها نظرُهم . ولم يدّعُ من زعم أنّ الإبلَ السّحابُ إلى قوله: إلاَّ طلبُ المناسبة»[29].

يشير الزمخشري إلى أنّ الذي أوّل كلمة «الإبل» في قول اللّه تعالى: ﴿ **أفَلا ينظرون إلى الإبل كيْفَ خُلقت** ﴾ بـ «السّحاب» حمله على ذلك التّأويل طلبُ المناسبة لقوله ﴿ **وإلَى السّماء كيف رفعت** ﴾ لما بين السّحاب والسماء من تناسب، فصرفه طلبُ المناسبة بيْن المتعاطفين إلى هذا التأويل البعيد، ولولا هذا ما كان يخطر إلى حُسْبَانه أن «الإبلَ» تأوّل بـ «السّحاب». وفي هذا دلالة على أن لطلبِ المناسبة أَهمية بالغةً فاعلةً عندهم، وقد يكون الحرصُ على تحقيقها سببًا في التكلّف في التأويل.

***

وقدْ يَأتِي مِنْ عبدِ القاهر ما يُوجبُ النظر، والمراجعة. يقُول:

«واعلمْ أنّ من الكلام ما أَنتَ تعلمُ إذا تدبَّرتَه أَنْ لم يحتجْ واضِعُه إلى فكرٍ ورويّةٍ حتى انتظمَ له. بل ترى سبيلَهُ في ضمِّ بعضهِ إلى بعضٍ سبيل مَنْ عَمدً إلى لآلٍ، فخرطَها في سلك، لا يبغي أكثَرَ من أن يمنعَها التفرُّقَ، وكمن نَضَدَ أشياءَ بعضَها على بعضٍ، لا يُريدُ في نَضْده ذلكَ أن تجيءَ له منهُ هيئةٌ أو صورةٌ، بل ليس إلاَّ أن تكونَ مجموعةً في رأيِ العَين.

وذلك إذا كان معناكَ معنى لا يحتاجُ أن تصنعَ فيه شيئاً غيرَ أن تعطفَ لفظاً على مثله، كقولِ الجاحظ:

«جنَّبكَ اللّهُ الشُّبهةَ، وعصَمكَ منَ الحَيْرة، وجعَلَ بينَكَ وبينَ المعرفة نَسَباً، وبينَ الصّدقِ سَبباً، وحبّب إليك التثبُّتَ، وزيّنَ في عينك الإنصافَ، وأذاقَكَ حلاوةَ التّقوى ، وأشعرَ قلبَكَ عِزّ الحقّ، وأودَعَ صدرَك بَرْدَ اليقين، وطَرَد عنك ذُلَّ اليأسِ، وعرَّفَك ما في الباطلِ منَ الذلّة ، وما في الجهل من القِلّة «......» ».

فما كانَ من هذا وشبهه لم يجبْ به فضلٌ إذا وجبَ إلا بمعناهُ، أو بمُتونِ ألفاظه دونَ نظمِه وتأليفه ، وذلك لأنه «**لا فضيلَةَ حتّى ترى في الأمرِ مَصْنَعاً وحتى تجدَ إلى التخيُّرِ سبيلاً، وحتّى تَكون قد استدركت صَوبًا**»[30] أيْ سعيت إلى صوابٍ يشرفُ موضعه ويصعبُ الوصول إليْه، وتركت خطأ يُحتاج في التّحفظِ منه إلى لطف نظرٍ، وفضل روية وقوةِ ذهنٍ وشدّة تيقّظ[31].

هذا الذي قالَه عبد القاهر يبيّن فيه أنّ مقالة الجاحظ بُنيت على نظم كلّ جملة على حيالها، وليس في بناء القول ما يوجب أن يكون ما

قدّم مقدمًا فريضة بلاغيّة، بل لك أن تُعيدَ نسقَ الجُملِ فيما بيْنها، ثُم لا تفقد شيئًا لا في بنية الجملة ، ولا في بنية القول.

هذا من عبدالقاهر لا يحسُن تسليمه، بل لنا أن نعيدَ التّبصّرَ في العلاقات المعنويّة بين الثلاثَ عشرةَ جملةً هي التي أوجبت بلاغة التّرتيب القائم بيْنها، فشأنُ هذا البيانِ العالي الّذي استفتح به الجاحظُ، وهو من هو في صنعة البيان كتابه الجليل (الحيوان) لا يمكنُ أن يكونَ نسقُ القولِ فيه عفوَ الخاطرِ، ولم يسعَ فيه إلى إدراك صوابٍ يشرفُ موضعُه، ويصعبُ الوصُولُ إليْه.

قد يُقال إنَّ عبدالقاهرِ في كتابِه «أسرار الْبلاغة» قال في مقالةِ الجاحظِ هذه قولاً آخر، يبرزُ ما فيها من الْحسْنى من وجهٍ آخر، يقُول:

«إن أردت أن تعرف مِثالاً فيما ذكرتُ لك، من أن العارفين بجواهر الكلام لا يعرِّجون على هذا الفنّ [أي البديع] إلاّ بعد الثّقة بسلامة المعنى وصحّته، وإلاّ حيثُ يأمَنون جنايةً منه عليه ، وانتقاصاً له وتعويقاً دونه، فانظر إلى خُطَب الجاحظ في أوائل كتبه هذا - والخُطبُ من شأنها أن يُعْتَمَد فيها الأوزانُ والأسجاعُ، فإنها تُرْوَى، وتُتناقل تَنَاقُلَ الأشعار، ومحلُّها محلُّ النّسيب والتّشبيب من الشّعر الّذي هو كأنّه لا يُرَادُ منه إلاّ الاحتفالُ في الصنعة ، والدَّلالةُ على مقدار شَوْطِ القَرِيحَة، والإخبارُ عن فَضْل القوة، والاقتدار على التفنُّن في الصّفةِ - قال في أول كتاب الحيوان: «جَنَّبك اللّه الشُّبْهة.........».

فقد ترك أوَّلاً أن يوفّق بين «الشبهة» و«الحيرة» في الإعراب، ولم يَرَ أن يَقْرن «الخلاف» إلى «الإنصاف»، ويَشْفَعَ «الحق» بـ «الصدق»، ولم يُعْنَ بأن يَطْلُب «لليأسِ» قرينةً تصل جناحَه، وشيئاً يكون رَدِيفاً له ،

لأنّه رأى التوفيق بين المعاني أحقُّ، والموازنة فيها أحسن ، ورأى العناية بها حتى تكونَ إخوةً من أبٍ وأمٍّ، ويذَرَها على ذلك تَتّفقُ بالوداد، على حسب اتّفاقها بالميلاد، أَوّلى من أن يَدَعها ، لنُصْرَة السجع وطلب الوزن ، أولادَ علّة ، عسى أن لا يوجد بينها وفاقٌ إلاّ في الظّواهر، فأمّا أنْ يَتَعَدَّى ذلك إلى الضّمائر، ويُخْلص إلى العقائِد والسّرائر، ففي الأقلِّ النادر»[32].

قد يقال ذلك، ولكنّك إن نظرت رأيت أنّ عبدالقاهر ينظر إلى التوافق في بنية الجملة، وأن الجاحظ ترك البديع من أجل أنْ يحقّق لمكونات الجملة تآخيًا جوانيًّا ، فهو الأحقُّ بالعناية من تحقيق التناغي الصّوتي بين الجملتين إذا ما تعارض تحقيقهما معًا.

هو في «الأسرار» ينظرُ إلى أنّ المعاني في مستوى بنية الجملة يتطلبُ تحقيق حسنِ اقترانها فيما بينها ترك فنونٍ من البديع فيما بينها وبين أترابها من الجمل ، لا تحقّق للمعاني مزيّةً، بل توقِعُ بها بليّة : تنقلُها من أنْ تكونَ إخوةً من أب وأمٍ إلى أَوْلادِ علّةٍ.

وهو في «الدّلائلِ» ينظرُ إلى أنّ ما قدّم لا يستلزمُ ما أُخّر، وما أُخّر لا يُبنى علَى ما قدّم، فاختلفت جهتا النّظر. فقال في «الدّلائل» غير ما قال «في الأسرار» وقولُه في «الأسرارِ» لا تثريب عليه.

أمَّا ماقالَه في»الدلائل» ففِيه نظرٌ كاشفٌ من «عبدِ الحميد الفراهيّ» بيّن فِيهِ ما بين الجملِ المكونات البيان كله من وشائج القُرى، والتلاحظ، والتّآخي:

أبرز عبدُالحميد الفراهيّ وجهًا لتمكن جمل هذه الفقرة من كلام الجاحظ في مواقِعها ، وأَنّ كلّ جملة هي آنسة بما قامت فيه، وليس كما

ذهبَ إليه عبد القاهر منْ أنه لا فضيلة للتأليف فيها، يقُول: «فاعلَمْ أنّ الشُّبهةَ أوّلُ الْبَلَيّة، فتغادرُ الْمَرْءَ مُتحيّرًا، لا يدري أيِّ الأمرينِ يُرجّحُ ، فإنْ كانَ لَهُ سَببٌ إلَى الْمعرفَة مَالَ إليْها ، ،فهديَ إلى الصّدق، وحينَئذ يَحتاجُ إلَى التّثَبّتِ عليْه، ثُم التّثبُّتُ يَعُودُ تعَسُّفًا إذا نَبّذَ الإنْصَافَ ، فَيجمَدُ عَلَى مَا عرفَ، ولا يَصْعَدُ إلَى مَا هُوَ أرْفَعُ منْهُ ، فإنْ زُيّنَ في عَيْنه الإنصَافُ تَاقَ إلَيْه، وَهَاهُنا كَمُلَتْ لَهُ أسبَابُ الْعِلْمِ، فهذِهِ ستُّ منازلَ في الْعِلْمِ.

ثُمّ لابُدّ منَ الْعملِ بما عَلمَ، وإلاَّ فَسَدَ رَأْيُهُ، فَيُوشكُ أنْ يَرَى الْباطلَ حقًّا ، وبذا عَلمتَ شدّةَ حَاجَتنَا إلى تَهذيب أخلاقنا ؛لأجلِ إصَابَةِ الرّأي، فَمنَ الأوَّلِ احتَاجَ الْمَرْءُ مَدَدَ التّقوَى، فَإنّها منْبَعُ الْخَير، وَالْمُتّقي في هَذه الدّارِ الْفَانيَة رُبَّمَا ابْتُليَ بالبُؤس والضُّرِّ، فإذا نبذَ الدُّنيا وقنَعَ بالتّقوَى، فنّدَه النّاسُ، واسْتهانَهُ الْجمهُورُ فإنْ صَبرَ علَى الضُّرّ، فكَيْفَ يَصْبرُ عَلَى الْمَهانَة إلاّ أنْ يَشْعُرَ بذلِّ الْباطلِ، وعزِّ الحَقِّ، فَيُكْرِمَ نفسَهُ، ويَهُونَ في عَيْنه جَاهُ الأشرَار ؛ ليقينه الثَّابت بفلاح الْمُتّقينَ، فبهَذَا الْعزِّ الّذي أُشربَ قلْبُه طرَدَ عَنْهُ ذُلَّ الْيَأْس، ولَوَ هَجَمَتَ الشّدائدُ، وبَعُدَ عَنْهُ الوعدُ الإلهيُّ فحينَئذٍ يَرَى الْبَاطلَ عَيْنَ الذلّة، ويرَى الْجَهلَ عَينَ الْفقرِ» أهـ[33].

يتبيّن لك من تأويل الفراهيّ مقتضياتِ نسقِ الجملِ في البيانِ الجاحظيّ الذي لم ير عبد القاهرِ فضلاً لهذا النسق، منْ أنه خواءٌ من الاختيارِ وَالصّنعةِ واستدراكِ الصواب.

وما أبرزه الفراهيّ ببصيرته النافذة في غور أنساب الجمل الجاحظية هو من قبيل الترتيب بيْن معاني الجمل، ولا معاني الكلم، وهذا مطلبٌ أعلى من مطلب النظر فيما بيّن معاني الكلم من أنساب.

المهمُّ أنَّ هذا الذي جاء من الجاحظ هو على سَنَنِ مواضع في القرآن الكريم قد يقُال فيها ما قاله عبدالقاهر في «الدّلائل» بشأنِ مقال الجاحظ: ليس فيه ما يوجب تقديم ما قدم، وتأخير ما أخر. ألا ترى أنّه يمكن أن يأتي من يقُول ما الذي يمنع أن ننسّق جمل آية الكرسي محافظين على عددها وبنية كل جملة، غير أنّه نقدم ونؤخر؟

كذلك يُمكن على نهج ما ذهب إليّه عبد القاهر أن يأتي من يقُول إنّا يمكن بلاغة أن نعيدَ نَسقَ الآيات السّبع في أول سورة (المدّثر): ﴿ **يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ × وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** ﴾ (المدثر: 1-7)(34).

ما الذي يمنع بناءً على مقال عبدالقاهر أن يقُال في غير القرآن: يا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ قُمْ، فَأَنذرْ، وَالرُّجْزَ، فَاهْجُرْ، وَثِيَابَكَ، فَطَهِّرْ، وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ، وَلِرَبّكَ، فَاصْبِرَ، وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ، وَرَبَّكَ فَكَبر.

ومن ثمَّ لا يكون في ترتيب الآيات فضيلةٌ بلاغيّةٌ، وأنّ الحجازَ المانعَ من تغيير النّسق مانعٌ دينيّ إيماني يَلتزمُ به من يؤمن بالقرآنِ، وليس مانعًا بيانيًا قائمًا في النصّ يلتزم به من لا يؤمن بالقرآن، وبذلك تكونُ مقاربةٌ بيّن هذا المذهب ومذهب من يقُول إنّ العلّة الوَحيدة لإعجاز القرآن أنّه كلامُ الله سبحانه وتعالى، أما بلاغتُه، فكمثل بلاغة غيرِه، وهذه لا يرضاها عبدالقاهر البَتة، وهو متقاطعٌ تمامًا مع قولِه:

«أعجزَتْهُم مزايا ظهرتْ لهم في نظمه، وخصائصُ صادفوها في سياقِ لفظه، وبدائعُ راعتهم من مبادئَ آيِه، ومقاطعِها، ومجاري ألفاظِها، ومواقعِها، وفي مضربِ كلّ مثلٍ، ومساقِ كلّ خبرٍ، وصورةِ كلّ عظةٍ وتنبيه وإعلام وتذكيرٍ وترغيبٍ وترهيب، ومع كلّ حُجة وبُرهان وصفةٍ وتبيانٍ. وبَهرَهُم أنّهمَ تأمَّلوهُ سورةً سورةً، وعُشراً عُشراً، وآيةً آيةً، فلم يجدوا في الجميع كلمةً ينبو بها مكانُها، ولفظةً يُنكرُ شأنُها،

أو يُرى أنّ غيرَها أصلحُ هناك، أو أشبهُ، أو أحرى، وأخلق. بل وجدُوا اتّساقاً بَهرَ العُقولَ، وأعجزَ الجمهورَ، ونظاماً، والتئاماً، وإتقاناً، وإحكاماً لم يدعْ في نفس بليغ منهم – ولو حكّ بيافوخه السَّماء – موضعَ طمعٍ حتى خرسَت الألسنُ عن أن تدَّعيَ، وتقولَ، وخَذيتِ القُرُوم، فلم تملكْ أن تَصولَ»[35].

لهذا قلتُ إنّ مستوى «التّرتيب» بيْن الجمل أعلى منزلاً من مستوى «النظم»، ولا يكون «التَّرتيب» إلا مبنيًا عل تحقّق النّظم في مكونات مستوى «التّرتيب».

والعنايةُ بهذا المستوَى من بناء صُورة المعنى حرًى أن تسامق ما أولاه البلاغيون لمستوى «النظم» من عناية تنظيرية وتأويلية. وفيضٌ بالغٌ من أسرار بلاغة الخطاب العالي بَلْهُ العليّ المعجز قائمةٌ في هذا المستوى من بناء صُورة المعنى: مستوَى الترتيب.

***

المستوى الثالث: (التأليف)[36]:

«التأليف» علاقةٌ تقومُ بين مكوناتِ بنية المعقد أو الفصل[37] ومنْ ثَم، فالتأليف هو توخّي ما يكون بيْن معاني (النُّجوم أو العُشر كما يسميه عبدالقاهر/ الصُّورِ الكُليّة/ الفقَر) من علاقات في بناء المعقد/ الفصل عَلَى حسبِ الغرضِ المرحليّ الّذي يُقالُ له الكلامُ.

كلّ معنى جزئيّ لصورة، أو نجم، أو فقرة يتآلف مع سِباقِه، ولِحاقِه على لاحبِ السّياق وصُولاً إلى الفصل/ المعقِد ذي الغرضِ المرحليّ.

«المعقِد» يتكوّنُ من مجموعِ صور كلّيّة (نجوم/ فقر) وعمودُ بنيتِه هو «التأليف»، فهو إذن يتمثّلُ فِيما بيْن معاني الصُّور الكلية من علاقات توجبُ نسقَها في بنية «المعقِد».

ومَعنَى الصُورة الواحدةِ (النجم/ العُشر/ الفقرة) مكونٌ من معاني الجُمل المُكوّنة للصُّورة (النجم/ الفقرة)، كما أنّ معنى «المُعقد» (الفصل) الوَاحد مكوّنٌ منْ معاني الصُّورِ...، وهذا التّناسقُ بيْن معاني الصُور أسمّيه تأَليفًا، لأنّه أوغلُ فِي اللطفِ، وذلك شأنُ التّأليف.

وهذا ما لم يكنْ من عبدِالقاهر مزيدُ اعتناءٍ به كما كان منهُ فِي مستوى (النظم) ثُمّ مستوى (الترتيبِ).

وممَّا هُوَ قويّ الدّلالة على هذا «التأليف» ما تراه في نسق آيات أحكام المُعاملاتِ الماليّة في سورة (البقرة). تبدأ الآياتِ بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **مَّثَلُ الَّذينَ يُنفقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (البقرة: 261).

ليختم هذا «المَعقد» بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴾ (البقرة: 283).

- أقيم هذا «المَعقِد» من أربع فِقر (صور كلية).
- الفقرة الأولى فقرة (الصدقة: ي 261-274).
- الفقرة الثانية فقرة (الربا: ي 275-281)
- الفقرة الثالثة فقرة المداينة والمبايعة : ي: 282)
- الفقرة الأخيرة فقرة الرهن: ي: 284).

نسق هذه الفِقر فيما بينها هو «التّأليف» وهو قائمٌ بيْن (النجوم/ الصّور/ الفقر) على أساسٍ من الأغراضِ والمقاصد والمرامِي المَرْحليّة للقول، فلكلِّ فِقرة موضوعٌ له غرضٌ مَرْحليٌّ.

وانظرْ في قصة سيدنا موسى - عليْه السّلام - مع العبد الصالح، مرَّت بثلاثة أحداث: خرق السفينة، ثم قتل الغلام، ثم بناء الجدار.

ظاهر الأمر أنّه يُمكنُ أن يقدّمَ بعضُها على بعضٍ، وهي أحداثٌ في قصَّة واحدةٍ ، ولكن إن تبصّرت أمرَ سَيّدِنَا موسى - عليْه السّلام - وما كان بِه ومنه قبل النبوّةِ، وعلاقة ذلك بسِياق القصّة رأيت أن سيّدنا موسى- عليْه السّلام - قد مرّ هُوَ بالأحداث الثلاثة، ولم يتعجبْ منها ، بل لو تذكرها لما تعجب من صنيعِ العبدِ الصالح:

يقُولُ البقاعيّ: « وقد نبه الله - سبحانه وتعالى- موسى - عليه السّلام - كما في تفسير الأصبهانيّ وغيره بما فعل الخضر على ما وقع له هو من مثله سواء بسواء:

فنبهه - بخرق السفينة الذي ظاهره هلك وباطنه نجاة من يد الغاصب - على التّابوت الذي أُطبق عليه ، وأُلقي في اليمّ خوفاً عليه من فرعونَ الغاصب، فكان ظاهرُه هلكاً وباطنه نجاة.

ويقتلُ الغلامَ على أنّه كان معصومَ الحركة في نفس الأمر في قتله القبطيّ ، وإن لم يكن إذ ذاك يعلمه لكونه لم يُنبّأ.

وبإقامة الجدار من غير أجرٍ على سَقيهِ لبناتِ شعيب - عليه السلام - من غير أجرٍ مع احتياجه لذلك»(38).

فهذه الأحداثُ مرتّبةٌ زمنيًا على ترتيب الأحداثِ التي وقعت لموسى - عليهِ السّلام - قبل نبوته.

وننظر في هذه القصة من وجهٍ آخر، علاقة الأحداثِ ببعضها، فنجد تناسبًا :

إذا ما نظرت في الحدثِ الأول (خرقُ السفينة) ألفيتَ أنّ فيه منجاةً لجماعةٍ ضعافٍ من ظلمِ سلطانٍ لا طاقةَ للمظلوم في دفعهِ ، وهُو ظلمٌ من راعٍ لمرعيّ في إمرتِه.

وفي الحدثِ الثَّاني (قتل الغلام) ألفيت أنّ فِيه منجاةً منْ ضررٍ يكون من صغير لكبيرٍ، هو الوالي عليْه ، فهو ظلمٌ من مرعِيٍّ لراعٍ.

وفي الحدثِ الثَّالثِ (بناء الجدار لغلامين يتيميْن) ألفَيتَ أنَّ فيه منْجاةً من ضررٍ من عامةٍ لصغيرين من أنفسِهما .

أنت ترى بيْن «الأوّل» و«الثاني» تقابلاً من وجهٍ، وتناظرًا من وجهٍ، وترى بيْن «الأوّلِ» و«الثالثِ» تناظرًا من وجهٍ. فهو كـ «ردّ العجزِ على الصّدر»: فالثالثُ ضررٌ يقع ممّن شأنهم أن يكونوا رعاةً حماةً كافلين لهذين اليتيميْن، والأول ضررٌ يقع مِمّن شأنُه أن يكونَ حاميًا لأصحابِ السّفينة راعيًا لهم معينًا لهم على حسن طلبهم الرزقَ الْحلالَ.

وإذا نظرت في الحدثِ «الثاني» رأيت الضّررَ آتيًا من قلبِ الأسرة، ممّن يؤمّل أن يكونَ يومًا عونًا لوالديه، لا أن يرهقهما طغيانًا وكفرًا.

وتنظرُ من جهةٍ أخرَى، فترَى في «الأوّل» وقايةً من ضرر آتٍ من أعلى (الملك)، وفي «الثَّاني» وقاية من ضررٍ داخليّ (الابن)، وفي «الثّالث» وقايةً من ضررٍ خارجيّ (العامة).

وتنظر، فترى في «الأوّلِ» صلاح الشعبِ قيضَ له من يدفع عنه ظلم ماليكه.

وفي «الثّاني» صلاح الوالدين قيضَ لهما من يدفعُ عنهما ظلم وليدهما.

وفي «الثّالث» صلاح الوالدين قيض لولديهما من يدفع عنهما ظلم الآخرين.

فكان الصّلاح في الأحداث الثلاثة كهفًا يحفظُ أهل الصلاح، كما حفظ الكهف الفتية. فكان «الكهف» جديرًا أن تسمّى بِه السُّورة.

وتنظر، فتجدُ الحدثَ «الأوّل» (الوقاية من ظلم الملك) يناظر وقاية فتية الكهفِ من ظلم الملك أيضًا.

وفي الحدثِ «الثَّالث» تجدُ بناء (العبد الصالح: الخَضر) جدارًا يحفظُ كنزًا ليتيمين منْ عدوان الغوغاء من العامة يناظر بناء ذي القرنيين (العبد الصالح) سدًا يحفظ النَّاسِ من ظُلم الغوغاء: (يأجوج ومأجوج).

وفي الحدثِ «الثّاني» تجدُ كُفرانَ صاحبِ الجنتين، وإيمانَ صاحبه، وما بينهما من منازعة يناظره كفران الغلام، ومنازعته والديه ، كما يشير إليْه قوله سبْحانه وتعالى: ﴿ **فَخشِينا أن يُرهِقهُما طُغيانًا وكُفرَا** ﴾.

المهمّ أنّ ثمّ وجوهًا عدّة لنسقِ هذه الصور القصصية في هذا المعقد منْ معاقد سُورةِ الكهف، وهذا النَّسقُ هو من باب تأليف مكوّنات القصَّة الواحدة التي تشَكِّلُ مَعقِدًا. يُجمعُ إِلى معاقد تتركّبُ منْها السورة (النّصّ).

وتنظرُ في سُورةِ «يوسف» تجدها تألفت من معقدين:

- المعقد الأول صورٌ ممَّا كان في مقتبل أمر«يوسف» عليْه السّلام، وهو صغير في إخوته.
- والمعقد الآخر ما كان في فتوته ، وهو في بيّت سيده ، ومختتمِ أمرِه.

كلّ مَعقِدٍ تكونُ من ثلاث مراحل: مرحلة التآمر، ومرحلة الابتلاء، ومرحلة الاجتباء.

أولاً: في المعقد الأول :

صورٌ ممَّا كان في مقتبل أمر«يوسف» عليْه السّلام ، وهو صغير في إخوته (ي : 7-22) : تجده من ثلاثِ مراحل:

- المرحلة الأولى: تآمر أخوتِه ، وتمكنِهم من أن يأخذوه ، وأن يلقوا به في الجب (آي : 7-18).
- والمرحلة الثانية: مرحلة الابتلاء والأسر والسجن، هو ما كان في الجُبِّ، والتقاطِه وبيعه بثمن بخسٍ (آي: 18-20).
- والمرحلة الثالثة :مرحلة الاجتباء ، شراء عزيز مصر ، ونزوله منه منزلة عليّة (آي: 21-22).

ثانيًا: في المعقد الآخر:

ما كان في فتوته، وهو في بيْت سيده، ومختتم أمرِه (آي : 23-101):

- **المرحلة الأولى:** مرحلة التآمر: تآمرُ امرأة العزيز والنسوة:(آي: 23-31).
- **والمرحلة الثانية:** مرحلة الابتلاء: السّجنُ (آي : 32-42).
- **والمرحلة الثالثة:** مرحلة الاجتباء، براءتُه، خروجه واعتلاؤه منزلاً رفيعًا في قصر العزيز، واستقدامُ أبويه، وإخوته، وعلو شأنهم. (آي: 43-101).

هذا النّسقُ في بناءِ كلّ معقدٍ من هو ما أسميّه « البناء التّأليفيّ»، فهو نسقٌ بيْن مكونات «المعقِد» .

وليس يخفَى أنّ ما يرْبطُ بيْن مكونات «المعقِد» (الفصل) ليس بعلاقة إعرابية، وليس بمعنى جزئيّ تحملُه جملة نَحوية، بل هو علاقةٌ معنويةٌ (غرض جزئي) تدور عليها مكونات «المَعقِد» (الفصل) كلّه .

***

المستوى الرَّابع: (التَّركيب):

وهو توخّي ما يكون بيْن معاني «المعاقد» (الفصول) (أي الأغراض المرحلية/ الجزئِيّة للمعقد) من علاقة في بناء النصّ (السورة في البيان القرآني أو القصيدة، الخطبة... في بيان الإبداع البشريّ) عَلَى حسبِ ما لهذا النّصّ من عرض محوريّ رئيس، ومقصود أعظم ، ومغزى مركزيّ يُساق له الكلامُ كلَّه ممَّا يُحقّقُ للنصّ وحدة المُغزَى، وهي وحدة تؤلفُ بيْن الموضوعاتِ المتعددةِ المتنوعةِ في أغراضِها المرحليّة[39].

من هذا ما تراه من نسقِ معاقد سُورة البقرة ، وقد تكلم العلماء في هذا، وأبانوا عن الأقسام (المعاقد) التي تركبت منها السورة.

وكذلك يمكنك أن تراجع النّظر فيما أَبنْتُهُ لك في سورة «يوسف» فقد كان فيما ذكرتُ إشارةٌ إلى بناءِ السّورة من معقِدين حددتهما، وحدّدتُ ما تشكل منْه كلّ «معقدٍ».

ولك أن تنظر سورة (الضحى). يقُول اللّه سبحانه وتعالى :

﴿ **بسم الله الرَّحمَنِ الرّحيم وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾ (الضحى : 1-22).

فهذه إحدى عشرة آية هي أربعةُ معاقد على النحو التالي:

- ﴿ **بسم الله الرّحمَنِ الرّحيم وَالضُّحَى وَاللّيْلِ إِذَا سَجَى**
- **مَا وَدّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**

- **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى× وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ***
- **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ× وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾.

استفتحت السورة بالقسم: ﴿ **وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى** ﴾.

وجاء جواب القسم من ثلاث جمل:

﴿ **مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى** ﴾.

فهذا يمثّلُ الوعد الإلهي لنبيه صلّى اللّه عليْه وسلّم ليطمئنّ فؤاده، ومن ثَم لنْ يجد التوجسُ خيفة أو القلقُ سبيلاً إلى قلبِ النبيّ صلّى اللّه عليْه وسَلّم .

وإذا نظرت في هذه الجمل ألفيت كلّ جملةٍ تحملُ وعدًا بنعمةٍ جليلة، رتّبت ، ونسقت نسقًا بديعًا.

ثم جاء ما يزيد هذا الوعد قرارًا في قلبه ، بتذكيره وتقريره بنعم سبقت عليْه من ربِه سبحانه وتعالى منذ أن نشأ إلى أنْ جعله نبيًّا، تجدُ هذه أيضًا ثلاث جمل (آيات) كلّ جملة (آية) تحملُ نعمة أنعمها عليه: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى × وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى**﴾.

هذا الاستفهام الإقراريّ يملأُ القلبَ يقينًا، وهو في هذه الحقبة من الدّعوة شديد الاحتياج إلى ذلك المَددِ الربّانيّ.

وتنظر، فتجدُ هذه الجملَ الثلاثَ منسوقةً على النّحوِ الذي جاءت عليه الجملُ (الآيات) السابقة، فالأولى في القِسْمِ الأوّل: ﴿ **مَا وَدَّعَكَ**

رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ تعادلُ الأولى في القِسْمِ الثّاني: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى** ﴾.

والثانية تعادل الثانية: ﴿ **وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى** ﴾ تعادل الثانية: ﴿ **وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى** ﴾.

والثالثة: ﴿ **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى** ﴾ تعادل الثالثة: ﴿ **وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى** ﴾.

وتنظر في الآيات الثلاث الأخيرة، تجدها قد تكفَّلت بالأدبِ له، وتربيتِه، ودعوتِه إلى أن يفعلَ في أُمّتِه ومعها ما فعل اللّه سبحانه وتعالى معه :

﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾.

وتنظرُ فتجدُ الأولى: ﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ** ﴾ تعادل الأولى في القسمين (المعقدين) السابقين : ﴿ **مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى /وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى** ﴾.

وتجد الثانية من القسم الثالث: ﴿ **وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ** ﴾ تعادل الثانية من القسمين الأولين : ﴿ **وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى/ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى** ﴾.

وتجد الثالثة من القسم الثالث: ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾ تعادل الثالثة من القسمين الأولين: ﴿ **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى/ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى** ﴾.

وبذلك تجد اتساقًا على الامتداد الأفقي بيّن آيات كلّ «معقد» لا يخفى عليّك.

وتجد اتساقًا على الامتداد الرأسيّ فيه لطفٌ :

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى/ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى / فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾.

﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولى/ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى / وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾.

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى/ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى/ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾.

هكذا تجد كلّ نعمة تبدأ بوعد، يتلوها تقريرٌ بسبقِ منَح ربّانية يؤكّد الوعد ، ثُمّ إغراء بفعلٍ يضمن تحقّيقه استمرار المِنَحَ العطَايا.

تُعدُّ سورةُ الضُّحَى نموذجًا ظاهرًا باهرًا قريبَ الإدراك، متباعدًا عن مجال الاختلاف بيْن أهل النظر لنسق البناءِ التركيبيّ لصُورة المعنى، ومن ثَمّ آثرتُه هنا بالنّظر في هذا البحثِ الوجيز[40].

الهوامش

(1) دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني . قراءة محمود شاكر. ط: المدني . نشر الخانجي بمصر: ص 81.

(2) السابق : 43.

(3) البخاري : كتاب الجهاد، ومسلم كتاب: فضائل الصّحابة.

(4) البيان والتبيين للجاحظ: تحقيق عبد السلام هارون – نشر الخانجي . ط (7) 1418هـ، ج1، ص 87 .

(5) ليس هذا من عبد القاهر معابة لسابقيه بل هو وصف لما كان منهم في زمانهم، وكان غير ضارٍ بأهل ذلك الزمان ، ففي ما صنع علماء ذلك الزمان كفاية لأهله، وإن لم يكن فيه كفاية لأهلٍ الأزمنة من بعدهم، وهذا واجب علماء كل زمان أن يُغنوا أبناء زمانهم، فإن فعلوا فقد أدوا ما عليْهم.

(6) دلائل الإعجاز : 34 .

يقول عبدالقاهر ووجدت المعول على أن هاهنا... يفيد أن ذلك ما كان يعول عليْه في الزمان السابق إلا أنّ الإبانة عنه لم تكن مفصّلة مخرجة الخصائص والمزايا من معادنها.

وهذا ما يسْعى عبدالقاهر إلى خدمة العلم من خلال التفصيل والتبيين واستخراج الخصائص والمزايا، وتحرير الوجوه، وتبيان النظائر، وما يكون من فروق.

(7) قال الجاحظ: «قال ابن الأعرابيّ : قال معاوية بن أبي سُفيان لصحار بن عيّاش العبديّ: ما هذه البلاغة التي فيكم ؟ قال: «شيْءٌ تَجِيشُ بِهِ صُدورنا، فتقذفه علَى ألسنتنا»، (البيان والتبيين: 96/1) .

(8) دلائل الإعجاز: 53 - 54.

(9) السابق : 64.

(10) (والأربعة الأخر تمثل فنون التشكيل: (تشكيل البناء على تنوع مستويات بنائه).

وهذا يعني أنّ فنون التشكيل ضربان كليان: (صياغة وتصوير) و(نسج وتحبير).

«الصّياغة» مبدأ، و«التّصوير» غاية هذه الصياغة وبديعها، فهنالك صياغة غير مصورة، وأخرى مصورة.

و«النّسج» مبدأٌ، و«التحبيرُ» غاية هذا النسج وبديعه، فهناك نسج غير محبّر، ونسجٌ محبّر.

وعبدالقاهر أشار إلى أنّ هنالك كلامًا مزيته من نظمه دون لفظهِ، وأنّ هنالك كلامًا مزيته من نظمه ولفظه ، فما كان من نظمه وحده فهو صياغة أو نسج، وما كان من نظمه ولفظه ، فهو صياغة مصورة، ونسج محبّر.

وليس يخفى أنّ طريقة التشكيل صياغة ليست هي طريقةُ التشكيل نسجًا، ولاسيّما في مستوى علاقات المكونات صياغة ببعضِها، والمكونات نسجًا ببعضها . في الصياغة تفاعل عناصر وتماهي، ولا تبقى العناصر في وجودي الجمعي على شيّءٍ من خصائصها في وجودها الفردي.

وفي «النّسج» تناظر أجزاء، ويبقى للعناصر في وجودها الجمعي شيّءٌ من خصائصها في وجودها الفرديّ، وهذه الأنماط والفنون التشكيلية متنوعة وفق أنواع المعاني التي تُشَكّل ، فليس منهاج التشكيل صياغة هو منهاج التشكيل نسجًا... مجمل القول أن البناء علاقات (رأسية) تصاعدية ، والتشكيل علاقات تمدّديّة (أفقية).

وكلّ مستوى منْ مستوياتِ البناء يمكن أن تجري فيه الفنون التشكيلية الأربعة وفقًا لطبيعة المعنى الذي يحمله المستوى البنائيّ. فالجملة أو المعقد يمكن أن يكون كلٌّ صياغة... أو تحبيرًا. فليس الأوّل تشكيلا مرتبطًا بالأوّل بناءً.... إلخ.

(11) دلائل الإعجاز : 39.

(12) أسرار البلاغة ، عبدالقاهر الجرجاني ، قراءة وتعليق محمود شاكر ، ط (1) مطبعة المدني، 1412، ص 5.

(13) وهذا الذي بينتُه لك من مستويات بناءِ صُورة المعنى مؤصّلاً من كلام عبدالقاهر الجرجاني، تجد له شَبيهًا عند برهان الدّين البقاعيّ(ت: 885هـ) في مقدمة تفسيره (نظم الدرر من تناسب الآيات والسور)، وإن كان على نحوٍ مقاربٍ، لا مطابقٍ، فقد جعل النّظم ضربين : الأولُ نظمٌ تركيبيّ، والآخرُ نظم ترتيبيّ.

وهو يجعل الأوّل (التركيبيّ) ما كان مختصًا ببناء الجملة والآية، والآخر: (الترتيبيّ) ما كان في نظم الآيات والفصول والسورة والسّور القُرْآنية. وبيّنٌ أنّ ما ذهب إليه من تسمية المستوى الأول (النظم التركيبي) مخرجُه القولُ بالتراكيب النحوية وبيّنٌ أنّ «الترتيب» عنده يعادلُ ثلاثةَ مستويات ممّا بينتُه لك: (الترتيب والتأليف والتركيب)، وهي مباينات اصطلاحية . ولا مشاحة في الاصطلاح بين بلاغيّ ومفسّر.

ولعلّه لمّا كانت المستوياتُ البنائية الثّلاثة الأخيرة: (الترتيب والتأليف والتركيب) تتفق في أنّ العلاقات في كلٍّ منها بيْن العناصر ليست علاقات نحويّة كان يسيرًا أن تُدرج تحت تجمّعٍ كليّ أطلق عليْه (النظم الترتيبيّ) وهي من بعد تتنوّع في المستوى الكّمّي لعناصر البناء

(14) قلت هنا : «في غالب الأمر» ؛ لأنّ بعض سور القرآن الكريم، ولاسيّما المكية لا تتكوّن من «معاقد» (فصُول) بل من فقر، بل إن بعضها لايعدو أن يكون أسلوبًا واحدًا كما تراه في سورة « والعصر» .

(15) إذا ما بينت مدلول مصطلح « الخصائص»، فثَم مصطلحٌ آخر يقارنه كثيرًا في بيانِ عبدالقاهر: هو مصطلحُ «المزايا».

مدلولُ هذا المصطلح «المزايا» هو الفوائد البيانية التي تنتجها الخصائص النظمية... والتركيبية، فمنزلة «المزايا» من الخصائص منزلة الثمرة من الشجرة ، وهذه المزايا تتنوع من الخاصية الواحدة بتنوع السياق، فـ «التنكير» خاصية قد تكون مزيته البلاغية التعظيم في سياقٍ ، وفي ثانٍ التحقير، وفي ثالثٍ العموم... وكذلك التقديم له خصائصُ عدة ، وعلى ذلك فـ«الخصائص» موضوعية صِرفة ، و«المزايا» يكون للمتدبرِ أثرٌ في استنتاجها من «الخصائص» وفقًا لقدرة وتنوع أدواته التي يستنتج ويستنبط بها الفوائد ، وكأنّ الأديب أو البليغ يقُول للسامع المتدبر إنما أنا قاسمٌ واللّه سبحانه وتعالى معطٍ . أي أنا قاسمٌ الخصائص بيّن السامعين بالسّوية ، واللّه سُبحانه وتعالى مُعطٍ المزايا كلٌّ على قدره. ﴿ **كُلا نُمِدُ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا** ﴾ (الإسراء: 20).

(16) معاني النحو هي ما يكون بيّن المعاني الوضعية (اللغوية) للكلم من علاقاتٍ وظيفية ، كالفاعلية، والمفعولية، ونحو ذلك، وتنوع هذه المعاني الوظِيفيّة هو الذي يعين على تنوّع الأنماط التركيبية للمواد اللغوية، وإن كانت هذه المواد قليلة، ممّا يحقق لها ما يُسمى بـ «الوجوه» و«الفروق التركيبية».

قولك: أعان محمد المظلوم، تجد لكل كلمةٍ من هذه الجملة معنيين: معنى لغوي هو الذي نحصل عليهِ من المعاجم اللغوية. ومعنى وظيفي، هو الذي نحصلُ عليّه من علْمِ الإعراب (النحو).

ولابد أن يكونَ هنالك تواءُمٌ بيّن المعنيين لكل كلمة، فقد يكون المعنى اللغوي لا يتناسب مع المعنى الوظيفِي، فلا يتحقّقُ بناءُ الجملة، ولن تؤدي وظيفتها الإخبارية: «التعبير»، و«التصوير»، فمن قال: «أعان الهواءُ الجبل»، لا يكون قولِه هذا قيمة إعلامية ، فهو جملةٌ فارغة من المعنى البياني (الإخباري/ الإعلامي)، على الرّغم منّ أنّ كلّ كلمةٍ لها معنى لغوي، بيّد أنّ هذا المعنى اللغوي لا تتحقق في بيّنه العلاقات الوظيفية الّتي تحققتٍ في الجملة السّابقة (أعان محمدٌ المظلوم).

(17) دلائل الإعجاز، ط: شاكر، ص : 393 .

(18) أسرار البلاغة ، ص : 7.

(19) قوله ﴿ **وأنّه تعالى جد ربنا** ﴾ وما شاكله في الآيات فيه قراءتان:

الأولى قراءة الجمهور بكسر همزةإنا عطفا على ﴿ **إنا سمعنا** ﴾ الذي هومقول القول،

والقراءة الأخرى لحفص وابن عامر وأبي جعفر وحمزة والكسائي وخلف بفتح الهمزة فهو معطوف على على المجرور بالباء في ﴿ **فَآمَنّا بِهِ** ﴾ من غير إعادة العامل مع المعطوف،وهونهج في العربية، ولاسيما أن حرف الجر يكثر حذفه مع(أن) وفي القراءتين هومن عطف المفرد على المفرد، فكان من قبيل النظم.

(20) ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسورلبرهان الدين البقاعيّ، تحقي : عبدالرزاق غالب المهدي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، 1415، ج/، 8، ص: 148 - 149).

(21) ينظر السابق ج: 8 ص : 333.

(22) دلائل الإعجاز، ط: شاكر، ص : 535 .

(23) هنالك وجوه أُخر، لا يكون هذا البيان عليه ثلاث جمل ، منها أنّ (الكتاب) بدلٌ من اسم الإشارة (ذلك) و(لاريب فيه) خبرٌ أوّل، وهدى خبرٌ ثانٍ، وبذلك يكون الكلامُ منْ قبيلِ «النظم» : المستوى الأوّل والأدنى.

أمّا الوجه الأول الذي اخترته هنا ، فلدينا ثلاث جمل بيْنها كمال اتصال، واسم الإشارة مرجعه عندي هو الصراط المستقيم المطلوب الهداية إليه في سورة «الفاتحة»: (إهدِنَا الصِّراطَ المُسْتقِيم) فكانت استجابة الدعاء في قوله تعالى في أولِ سُورةِ البقرة (ذلكَ الكِتاب) فكأنه قيل ذلك الصراط المستقيم الذي طلبتم الهداية إليه هو الكتاب، فقوله (الكتاب) خبرٌ عن اسم الإشارة (ذلك) وهذا الوجه يبرزُ فيه التواصل والتناسق، بل التصاعد في حركة المعنى القرآني على ما لا يخفى عليْك.

(24) دلائل الإعجاز : 227.

(25) علينا أن نكونَ على ذُكرٍ منْ أنّ التّوكيدَ، أوالتّبيين المعنويّ الّذي يعتدُّ به البلاغيون في باب علاقات الجمل ، والفقرِ ليس هو التّوكيدَ والتّبيينَ النحويّ الذي يعتدُّ به النُّحاة، فما يعتدُّ به النحاةُ هو من قبيلِ العلاقاتِ الإعرابية، وما يعتدّ بِه البلاغيون منْ قبيل العلاقاتِ المعنويّة، لا الإعرابية.

(26) القولُ بجواز تقدم جواب الشرط عليه هو مذهب من مذاهب أهل العلم بالنحو، وثمّ طائفةٌ تذهبُ إلى أنّه ليس بالجواب، بل هو دليلٌ عليه، والجوابُ محذوف، لكنْ يبقَى عليهم بيانُ مقتضِي الحذف، ثُم التّفسيرُ، أمّا التّقديم، فهو للاستهلالِ بالنتيجةِ مطلقةً، ثُمّ يأتي تقييدُ حدوثها بالشّرطِ، فهو من قبيل الإطلاقِ ثُمّ التّقييد، تقُول لصاحبك: أزورك إذا أكرمتَ محمّدًا. فأنت حين تستهل بقولك «أزورك» يتهلّل السامع بوعدك ، فإذا جاء الشرط تمكّن في وعيه ، لأنّه أدرك أن ما وُعد به ، فسرّه ، لن يكون إلا بتحقق هذا الشرط ، فيحرصُ على تحقّقه. والاحتكام إلى المعنى والغرض والسّياقِ أعلى عندي من الإحتكام إلى الصّنعة النّحوية وحدها. والقولُ بأنّ أداة الشّرط كأداة الاستفهام لها الصّدارة ، ولا تعمل فيما قدم عليها لايلزم التسّليمُ به.

(ينظر في مسالة جواز أو منع تقديم الجواب على الشرط: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين لأبي البركات بن الأنباري، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد: المسألة السابعة والثمانين (87)، ج 2، ص511-517، ط: المكتبة العصرية 1424هـ، بيروت .

(27) البيت من قصيدة رثى بها ابن عمه : ثعلبة بن عوف بن مالك بن ضبيعة،وقد قتلته بنو تغلب، وكان المرقش معه، فأفلت منه دون ابن عمه. مطلعها (بحر السريع).

هلْ بالدّيار أنْ تُجيبَ صَممْ ... لو كان رسمٌ ناطقٌ كلّمْ
الدارُ قفرٌ، والرّسُومُ كمَا ... رقّشَ في ظهر الأديم قَلمْ
ديارُ أسماءَ الّتي تبلتْ ... قَلْبي، فَعيني ماؤُهَا يسْجُمْ
أضحتْ خَلاءً نَبْتُها ثَئدٌ ... نوّرَ فيها زهوُهُ فاعْتمّ
بلْ هلْ شَجتكَ الظّعنُ بَاكرةً ... كأنّهنّ النّخلُ منْ مَلْهَمْ
النّشرُ مسْكٌ، والْوجوه دنانير، وأطرافُ الْبنانِ عَنمْ

ديوان المرقشين: القصيدة (14) من ديوان المرقش الأكبر ص76، تح:كارين صادر، دار صادر، بيروت.

(28) يقُول عبدالقاهر: «ويزيدك استبصاراً فيما قلناه أن تنظرَ فيما كانَ من الشّعْر جُملاً قد عُطِفَ بعضُها على بعضٍ بالواو كقوله: النّشرُ مِسْكٌ والوجوه دنانيرُ وأطرافُ الأكفّ عَنَمْ.

وذلك أنك ترى الذي تعقلُه من قولِه: « النَشرُ مسكٌ » لا يصيرُ بانضمام قوله: « والوجوهُ دنانيرُ » إليه شيئاً غيرَ الذي كان بل تراه باقياً على حاله. كذلك ترى ما تعقلِ من قوله «والوجوهُ دنانيرُ» لا يلحَقُه تغيرُ بانضمام قوله: «وأطرافُ الأكفّ عَنم «إليه» (دلائل الإعجاز: ص /535).

ويقُول في «أسرار البلاغة»: «إنما يجبُ حُفْظُ هذا الترتيب فيها لأجل الشّعر (أي لأجل وزن الشعر)، فأمّا أن تكون هذه الجمل متداخلةً كتداخل الجمل في الآية، وواجباً فيها أن يكون لها نَسقٌ مخصوص كالنسق في الأشياء إذا رُتِّبت ترتيباً مخصوصاً كان لمجموعها صُورةٌ خاصّةٌ مقرّرة فلا» (ص 110)،

فهو إنما يتكلم في شأن بنية التشبيه، وليس في بناء البيت، وليس يخفَى أن جملة (النشر مسك) جملة ابتدائية، وأن عطف (الوجوه دنانير) لم يشاركها في حكم إعرابيّ أو قيد معنويّ ،ولذا لا أذهب إلى أن هذا الذي بينهما من ترابط من قبيل «النظم» بلْ هو عنْدي من قبيل» الترتيب الذي العامل فيه المعنى، والغرض.

مجمل القول أن ما كان عامل الربط غير لفظيّ بل كان معنويًّا، فهو إلى الترتيب، لا النظم.

(29) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ج: 4/747.

وينظر معه مفتاح العلوم للسكاكي، ط1، سنة 1356هـ مصطفى الحلبي، ص: 124، وتفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ط: دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس، 1997م، : 304/30.

(30) دلائل الإعجاز: 96-97.

(31) السابق بتصرفٍ يسير.

(32) أسرار البلاغة، قراءة شاكر، ص 9-10.

(33) جمهرة البلاغة ص51، لعبدالحميد الفراهي، نقلاً عن بحث (مستويات الكلام البليغ عند عبد القاهر) للدكتور صالح بن سعيد الزهراني. مجلة علامات، نادي جدة الثقافي، ج44، مجلد 11 (ربيع الآخر: 1423هـ).

(34) ترتيب الآيات في مطلع سورة المدثر بالغُ الدقة، وهو يمثل منهاج الدّاعية إلى الله سبحانه وتعالى ، من شاء مزيدًا من التبصر في بلاغة نسق آيات هذا المطلع ، فلينظر: تفسير التحرير والتنوير : 274/29.

(35) دلائل الإعجاز: 39.

(36) إذا ما كان النظم، في أصل دلالته اللغوية يحمل معنى الجمع كيف كان واتفق، وكان الترتيب يحمل الجمع المنسق وفق أي عيار حسيّ أو معنويّ، فقد ترتب الأشياء وفق معيار شكليّ، ولكنك لن تؤلف بينها وفق معيار شكلي، فإنّ التأليف يحمل جمعًا يلاحظ فيه علاقة الألفة والتواد بين الأشياء، وهذا لا يكون إلا بعامل جوانيّ.

وهذا يهدي إلى أن عوامل التلاقي بين مكونات هذا المستوى من بناء صُورة المعنى عوامل جوانية غائرة ممتدّة، وهذا ما يتلاءم مع بناء صُورة المعنى في «المعقد» (الفصل).

(37) أسمّي ما يُسمّى» فصلا» وهو ما تكون من صورٍ كلية (فقر) «معقدًا» ولا أرغب في تسميته «فصلاً» فاسمُ «المعقد» أدلّ على العلاقة القائمة بين مكوناته، وإن كان في مصطلح «الفصل» دلالةٌ على التفصيل ، لا فصل بين المكونات، فإنّ دلالة «المعقد» على التماسك والتشابك، أقربُ وأمكن في النفسِ، لذا أطلقت عليه «معقِدًا» ولعلّي أكون مَصيبًا.

(38) نظم الدرر، للبقاعي: 496/4.

(39) فكرة المغزى المركزي، والمقصد الأعظم للنصدّ فكرة عربيّة عُنيَ بها الأئمة في علوم القرآن الكريم، ولذا نشأ عندهم ما يُعرفُ بعلم مقاصد السور القرآنية، وهذا العلمُ جعلهَ بُرهان الدين البقاعيّ (ت: 885هـ) ضابطًا لـ «علم المناسبات»، فقد كان «علم المناسبات» منْ قبله غير خاضع لـ «علم المقاصد»، فكانت عناية جمهرة المفسرين من قبلِ البقاعيّ معنيّةً بمناسبة الآيات بعضِها ببعض، دون أن تخضع هذه المناسبات لمغزى كليّ هو منها بمثابة الروح السّاري في كلّ مكونات السورة ، وما كان من بعض أهل العلم السّابقين عليّه في هذا كالرازيّ لم يكن مطردًا في أعمالهم ، فجاء البقاعيّ وأخضعَ علمَ المناسبات لـ «علم المقاصد» وهذا ما أضافه البقاعيّ إلى «علم المناسبات» ، ولذا تراه في كلّ سُورة يُعنى بِأمرين رئيسين: الأمر الأول : بيان المقصُود الأعظم للسورة.

والأمر الآخر: بيانُ مناسبة اسم السورةِ للمقصُود الأعظم.

(40) لمزيد من البيان التطبيقيّ للبناء التركيبيّ راجع بحثي: «منهج الدّعوة إلى الله في ضوءِ البناءِ التركيبيّ في سورة النحل» المنشور في الجزء الأوّل من بحوث ندوة كلية اللغة العربية في جامعة الإمام مُحمّد بن سعود الإسلامية بالرياض ، تحت عنوان «الدرايات البلاغية: الواقع والمأمول».